

المكتبة الثانية للأسرة

مختصر

صِيْدُ الْخَطَايَا

للإمام الحافظ المفسر
أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

اختصره
د. أحمد زعيتر شيخ المريد
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك
كلية التربية - جامعة الملك سعود



مَدَامُ الْوَطَنُ لِلنَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ



مَدَارُ الْوَطَنِ لِلنَّشْرِ

الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - ٢ كم غرب أسواق المجد

الرياض : الملز/ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) - فاكس : ٤٧٢٣٩٤١
السويدي ت ٤٢٦٧١٧٧ فاكس ٤٢٦٧٣٧٧ فرع جدة ت ٠٢٦٨٧٠٦٧٩ فاكس ٠٢٦٨١٧٣٨٦
مندوب الرياض : ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦ - مندوب الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
مندوب الشرقية والدمام : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ - مندوب الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
مندوب الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨
مندوب التوزيع الخيري للمنطقتين الجنوبية والشرقية : ٠٥٠٨٣٩٩٨٥٧
مندوب التوزيع الخيري لباقي مناطق المملكة : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
طلبات الجهات الحكومية : ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

الموقع على الإنترنت : www.madar-alwatan.com

البريد الإلكتروني : pop@dar-alwatan.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المختصر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد..
فما من شك أن الأسرة هي نواة كل مجتمع وقلبه النابض، وأساس نهضته وازدهاره
أن أحسن رعايتها، أو تخلفه وانكماشه إن أسىء رعايتها.
ومن هنا توجهت كافة الجهود الرسمية وغير الرسمية لعلاج مشكلات الأسرة،
وتذليل العقبات والصعاب التي تواجهها.
وإسهاماً منا في إعداد أسرة مؤمنة متماسكة قادرة على مواجهة التحديات، كان هذا
الإصدار «المكتبة الثانية للأسرة».

وقد دفعنا إلى المسارعة في إخراج هذا الإصدار لتلقي القراء للمكتبة الأولى للأسرة
بالرضى والقبول وذلك من خلال الرسائل الكثيرة التي وصلتنا، وازدياد الطلب
عليها، ورغبة الكثيرين من القراء والمتبرعين في الاستمرار على هذا النهج.
ويضم هذا الإصدار من الكتب ما يلي:

- ١- مختصر «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير.
- ٢- مختصر «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب» لابن القيم.
- ٣- مختصر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب.
- ٤- مختصر «صيد الخاطر» لابن الجوزي.
- ٥- مختصر «لطائف المعارف» لابن رجب.
- ٦- مختصر «كتاب الكبائر» للذهبي.

إن الهدف من هذا الإصدار والذي قبله هو تقوية الوازع الديني في نفوس أفراد
الأسرة، وصولاً إلى تعظيم الله تعالى ومحبته والسعي في مرضاته واجتناب معاصيه.
ولا شك أن هذا الهدف يسهم في علاج كثير من مشكلاتنا الأسرية والاجتماعية
من كافة الجوانب: الاعتقادية والتعبدية، أو الأمنية، أو الاجتماعية والأخلاقية،
أو الاقتصادية.

فإذا قوى الإيمان وصحّت عقائد الناس، اتجهوا إلى أفراد الله تعالى بالعبادة، وابتعدوا عن الشرك كبيره وصغيره، وعن البدع والضلالات التي لا أصل لها. وعلى الجانب الأمني، نجد أن أفراد الأسرة الذين امتلأت قلوبهم بمحبة الله، هم أكثر الناس حفاظاً على أمن البلاد والعباد، وأبعد الناس عن الإرهاب والإفساد في الأرض وترويع الآمنين، فلا يتساهلون بدماء المسلمين وأهل الذمة من المعاهدين والمستأمنين، ولا يتجاوزون حدود الله عزَّ وجلَّ بارتكاب الجرائم التي تخلُّ بالشرف والمروءة والأمانة.

وعلى الجانب الاجتماعي والأخلاقي، نجد أن تقوية الوازع الديني يسهم في إصلاح أوضاع الأسرة الاجتماعية، فيسارع أفرادها إلى تأدية ما عليهم من حقوق، فيختفي بذلك عقود الوالدين، وقطيعة الأرحام، ويسود حسن العشرة بين الزوجين مكان الخلافات الدائمة، ويتعامل الناس فيما بينهم بمكارم الأخلاق، ويسارعوا إلى المشاركة في الأنشطة الاجتماعية التي تحفظ المجتمعات، مثل رعاية الأيتام والأرامل والمعاقين والمسنين وأصحاب الاحتياجات الخاصة وغيرهم.

وعلى الجانب الاقتصادي، نجد أنه إذا قوي الإيمان وثبت تعظيم الله في النفوس، أثر ذلك في صدق التعامل بين الناس، وإتقان العمل، والانتهاء عن أكل الربا، وترك الاحتكار، والكف عن رفع أسعار السلع دون سبب، ورأينا التوسط في الإنفاق والاستهلاك والبُعد عن الإسراف والتبذير، والمسارة في حفظ حقوق المسلمين وغير المسلمين.

وفي الختام أقدم الشكر الجزيل للقراء الكرام والإخوة المتبرعين ولكل من ساهم ودعم وشارك في إنجاح هذا العمل، وأسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يكتب له القبول أنه خير مسؤول وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك

كلية التربية - جامعة الملك سعود

dralmazyad@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله حمداً يبلغُ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليماً لا يُدركُ مُنتهاه.
لما كانتِ الخواطر تجولُ في تصفُّحِ أشياء تُعرِّضُ لها ثم تُعرِّضُ عنها فتذهب؛ كان من أولى الأمور حفظُ ما يُحْطَرُّ لكيلا يُنسى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»^(١).

وكم قد خطر لي شيءٌ، فأتشاغلُ عن إثباته، فيذهب، فأتأسفُ عليه!
ورأيتُ من نفسي أنني كلما فتحتُ بَصَرَ التَّفَكُّرِ؛ سَنَحَ^(٢) له من عجائبِ الغيبِ ما لم يكن في حساب، فأنثال عليه^(٣) من كثيبِ التَّفْهِيمِ ما لا يجوزُ التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكتابَ قيِّداً لصيدِ الخاطر.
والله وليُّ النفع؛ إنه قريبٌ مجيبٌ.

○○○○○

(١) الدارمي (٤٩٧).

(٢) سَنَح: عرض.

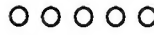
(٣) انثال عليه: اجتمع وتتابع.

الغفلة واليقظة

قد يَعْرِضُ عند سماعِ المواعظِ للسامعِ يَقْظَةٌ؛ فإذا انفصلَ عن مجلسِ الذِّكْرِ؛ عادتِ القسوةُ والغفلةُ!

فتدبرْتُ السببَ في ذلك، فعرفتُه، ثم رأيتُ الناسَ يتفاوتون في ذلك:
فالحالةُ العامةُ أنَّ القلبَ لا يكونُ على صِفَتِهِ من اليَقْظَةِ عند سماعِ الموعظةِ وبعدها؛ لسببين:
* أحدهما: أن المواعظَ كالسَّيَاطِ، والسَّيَاطُ لا تُؤْلَمُ بعد انقضاءِها إلا ما وقتَ وقوعِها.
* والثاني: أن حالةَ سماعِ المواعظِ يكونُ الإنسانُ فيها مُزَاحَ الْعِلَّةِ، قد تخلَّى بجسمِهِ وفكرِهِ عن أسبابِ الدنيا، وأنصَتَ بحضورِ قلبِهِ؛ فإذا عاد إلى الشواغلِ؛ اجتذبتْهُ بآفاتِها؛ فكيفَ يَصِحُّ أن يكونَ كما كان؟!

وهذه حالةُ تَعَمُّ الحَلَقِ، إلَّا أن أربابَ اليقظةِ يتفاوتون في بقاءِ الأثرِ.
* فمَنهم مَنْ يَغْرُمُ بلا تردُّدٍ، ويمضي من غيرِ التفاتٍ؛ فلو توقَّفَ بهم رَكْبُ الطبعِ؛ لَصَبَّجُوا؛ كما قال حنظلةٌ عن نفسه: نافَقَ حنظلةٌ^(١).
* ومنهم أقوامٌ يميلُ بهم الطبعُ إلى الغفلةِ أحياناً، ويدعوهم ما تقدَّم من المواعظِ إلى العملِ أحياناً؛ فهم كالسُّنْبِلَةِ تُمِيلُها الرياحُ.
وأقوامٌ لا يؤثِّرُ فيهم إلَّا بمقدارِ سماعِهِ؛ كما دَخَرَجْتُهُ على صفوان^(٢).



فوائد النظر في العواقب

مَنْ عَايَنَ بعينِ بصيرتِهِ تَنَاهِيَّ الأمورِ في بداياتِها؛ نال خيرَها، ونجا من شرِّها.
وَمَنْ لم يَرَ العواقبَ؛ غَلَبَ عليه الحِسُّ، فعاد عليه بالألمِ ما طَلَبَ منه السلامةُ، وبالنَّصَبِ ما رجا منه الراحةُ.

وبيانُ هذا في المستقبلِ يتبيَّنُ بِذِكْرِ الماضي: وهو أنك لا تَحُلُو أن تكونَ عصيتَ الله في عُمْرِكَ أو أطعته؛ فأين لَذَّةُ معصيتِكَ؟! وأين تَعَبُ طاعتِكَ؟! هيهاتَ؛ رحلَ كُلُّ بَاحِثٍ!

(١) مسلم (٢٧٥٠).

(٢) صفوان: صخرة ملساء.

فليت الذنوب إذا تَخَلَّتْ خَلَّتْ!

وازيدك في هذا بياناً: مثل ساعة الموت، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط، ولا أقول: كيف تغلب حلاوة اللذات؛ لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلاً، فبقيت مرارة الأسى بلا مقاوم.

أترك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟!

فراقب العواقب تسلم، ولا تمل مع هوى الحس فتندم.

○○○○○

أعجب العجائب

من تفكر في عواقب الدنيا؛ أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق؛ تأهب للسفر.
ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه!

تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن!

أعجب العجائب: سرورك بغرورك، وسهوك في هوك عما قد خبي لك! تغتر بصحتك وتنسى دئو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم! لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك! وقد شغلك نيل لذاتك عن ذكر خراب ذاتك.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقي ما يصنع الدهر
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم نحاهم بحال الريح بعدك والقبر

○○○○○

تجنب مواضع الفتن

من قارب الفتنة؛ بعدت عنه السلامة، ومن ادعى الصبر؛ وكل إلى نفسه، ورب نظرة لم تناظر^(١)، وأحق الأشياء بالضبط والقهر اللسان والعين.

(١) لم تناظر: لم يجعل لها نظيراً وإنما عوقب صاحبها بها على الفور.

فإياك إياك أن تغترَّ بعزْمِكَ على ترك الهوى؛ مع مقاربة الفتنة؛ فإن الهوى مكايِدٌ
وكم من سُجَاعٍ في صفِّ الحربِ اغتيلَ، فأناه ما لم يحتسبَ مَن يأنفُ النظرَ إليه!

○ ○ ○ ○ ○

أعظم العقوبة

أعظمُ المعاقبة أن لا يُحسَّ المعاقبُ بالعقوبة!
وأشدُّ من ذلك أن يَقَعَ السُّرورُ بما هو عقوبة؛ كالفرحِ بالمالِ الحرامِ، والتمكُّنِ
من الذنوبِ!
ومَن هذه حاله لا يفوزُ بطاعة.

○ ○ ○ ○ ○

علامة كمال العقل

من علامة كمالِ العقلِ علوُ الهمة، والراضي بالدُّونِ دينًا.
وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْنًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

○ ○ ○ ○ ○

في وجوب أخذ العُدَّةِ للرحيلِ

الواجبُ على العاقلِ أخذُ العُدَّةِ لرحيله؛ فإنه لا يعلمُ متى يَفْجُؤُهُ أمرُ ربِّه؟ ولا
يدري متى يُسْتَدْعَى؟
وإني رأيتُ خلقًا كثيرًا غرَّهم الشبابُ، ونَسُوا فَقْدَ الْأَقْرَانِ، وَأَلْهَاهُمْ طَوْلُ الْأَمْلِ.
فَالْعَاقِلُ مَنْ أَعْطَى كُلَّ لَحْظَةٍ حَقَّهَا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ بَغَتَهُ الْمَوْتُ؛ رُئِيَ
مُسْتَعِدًّا، وَإِنْ نَالَ الْأَمْلَ؛ ازْدَادَ خَيْرًا.

○ ○ ○ ○ ○

أسباب العقوبات

خَطَرْتُ لِي فِكْرَةً فِيمَا يَجْرِي عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَالَمِ مِنَ الْمَصَائِبِ الشَّدِيدَةِ وَالْبَلَايَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَنْتَاهِي إِلَى نَهَايَةِ الصَّعُوبَةِ!
فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَالْكَرَمُ يُوجِبُ الْمَسَاحَةَ؛ فَمَا وَجْهُ هَذِهِ الْمَعَاقِبَةِ؟! فَتَفَكَّرْتُ؟!

فَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي وَجُودِهِمْ كَالْعَدَمِ، لَا يَتَصَفَّحُونَ أَدَلَّةَ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَلَا يَنْظُرُونَ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ، بَلْ يَجْرُونَ عَلَى عَادَاتِهِمْ كَالْبَهَائِمِ؛ فَإِنْ وَافَقَ الشَّرْعُ مَرَادَهُمْ، وَإِلَّا؛ فَمُعَوَّكُهُمْ عَلَى أَغْرَاضِهِمْ! وَبَعْدَ حُصُولِ الدِّينَارِ لَا يَبَالُونَ؛ أَمِنْ حِلَالٍ كَانَ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ وَإِنْ سَهَّلَتْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ؛ فَعَلَوْهَا، وَإِنْ لَمْ تَسْهَلْ؛ تَرَكَوْهَا! وَفِيهِمْ مَنْ يَبَارِزُ بِالذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ؛ وَرَبَّمَا قَوِيَتْ مَعْرِفَةُ عَالَمٍ مِنْهُمْ وَتَفَاقَمَتْ ذُنُوبُهُ!!
فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ - وَإِنْ عَظُمَتْ - دُونَ إِجْرَامِهِمْ.

فَإِذَا وَقَعَتْ عِقَابُهُ لِمُخْصَصِ ذَنْبًا؛ صَاحَ مُسْتَغِيثُهُمْ: تُرَى هَذَا بِأَيِّ ذَنْبٍ؟! وَيَنْسَى مَا قَدْ كَانَ مَا تَنْزَلُزَلُ الْأَرْضُ لِبَعْضِهِ!

وَقَدْ يُهَانَ الشَّيْخَ فِي كِبَرِهِ حَتَّى تَرَحُّمَةُ الْقُلُوبِ، وَلَا يُدْرَى أَنَّ ذَلِكَ لِإِهْمَالِهِ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي شِبَابِهِ!
فَمَتَى رَأَيْتَ مُعَاقِبًا؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِلذُّنُوبِ.



في تصفية الأعمال

مَنْ أَحَبَّ تَصْفِيَةَ الْأَحْوَالِ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَصْفِيَةِ الْأَعْمَالِ.
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَلِّوْا أَسْقَمْتُمْ أَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].
قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: مَنْ صَفَّى؛ صُفِّيَ لَهُ، وَمَنْ كَذَّرَ؛ كُذِّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ؛ كُفِيَ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ؛ كُفِيَ فِي لَيْلِهِ.
وَكَانَ شَيْخٌ يَدُورُ فِي الْمَجَالِسِ وَيَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَدُومَ لَهُ الْعَافِيَةُ؛ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.
وَكَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ يَقُولُ: إِنِّي لِأَعْصِي اللَّهَ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِي دَائِبِي وَجَارِيَتِي.

واعلم - وفَّقَكَ اللهُ - أنه لا يُحْسُ بضربة مُبَنَّجٍ، وإنما يَعْرِفُ الزيادةَ من النُّقْصَانِ المحاسِبُ لنفسه.

ومتى رأيتَ تَكْدِيرًا في حالٍ؛ فاذاكِرْ نِعْمَةً ما شُكِرَتْ أو زَلَّةً قد فُعِلَتْ.
واحذر من نِفَارِ النِّعَمِ ومُفَاجِئَةِ النِّقَمِ، ولا تَغْتَرِزْ بِسَعَةِ بِسَاطِ الحِلْمِ؛ فربَّما عَجَّلَ انقباضه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].
وكان أبو علي الرُّوذُبَارِيُّ يقول: من الاغترار أن تسيء، فيُحْسِنَ إليك، فتترك التوبة توهُمًا أنك تُسامَحُ في الهفوات.



في قيمة الوقت

ينبغي للإنسان أن يعرفَ شَرَفَ زمانه وَقَدَّرَ وقته؛ فلا يُضَيِّعُ منه لحظةً في غير قُرْبَةٍ، ويقَدِّمَ الأفضلَ فالأفضلَ من القولِ والعملِ.
ولتكن نيتهُ في الخير قائمةً من غير فتورٍ بما لا يَعْجِزُ عنه البدنُ من العملِ.
وقد كان جماعةٌ من السلف يبادرون اللحظاتِ:
فَنَقَلَ عن عامر بن عبد قيس أن رجلاً قال له: كَلِّمْنِي! فقال له: أمسِكِ الشمسَ!
وقال ابنُ ثابتٍ البُنَّانِيُّ: ذهبْتُ أَلْقُنُ أباي، فقال: يا بني! دَعْنِي؛ فإني في وردي السادس.
ودخلوا على بعضِ السلفِ عند موته وهو يصلي، ف قيل له^(١)؟ فقال: الآن تُطَوُّى صحيفتي.

فإذا عَلِمَ الإنسانُ - وإنْ بالغَ في الجَدِّ - بأنَّ الموتَ يقطعُه عن العملِ؛ عَمِلَ في حياته ما يدومُ له أجرُه بعد موته: فإنْ كانَ له شيءٌ من الدنيا؛ وقفَ وقفًا، وغرَسَ غرسًا، وأجرى نهْرًا، ويسعى في تحصيلِ ذُرِّيَّةٍ تذكُرُ اللهَ بعده فيكونُ الأجرُ له، أو أن يصنِّفَ كتابًا في العلم؛ فإن تصنيفَ العالمِ ولَدُهُ المخلَّدُ، وأن يكونَ عاملاً بالخيرِ عالمًا فيه، فيُنْقَلَ من فَعْلِهِ ما يَقْتَدِي الغيرُ به؛ فذلك الذي لم يمت.

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء.

(١) أي لا موه وطلبوا منه أن يستريح.

الجزاء من جنس العمل

مَنْ تَأَمَّلَ أفعالَ البارئِ سبحانه؛ رآها على قانونِ العدلِ، وشاهدَ الجزاءَ مُرَصِّدًا للمُجازي، ولو بعد حينٍ؛ فلا ينبغي أن يَغْتَرَّ مُسامِحُ؛ فالجزاءُ قد يتأخَّرُ.
ومن أقبحِ الذُّنوبِ التي قد أُعِدَّ لها الجزاءُ العظيمُ الإصرارُ على الذنبِ، ثم يصانعُ صاحبه باستغفارٍ وصلاةٍ وتعبُّدٍ، وعنده أن المصانعةَ تنفعُ!
وأعظمُ الخلقِ اغترارًا مَنْ أتى ما يكرههُ اللهُ، وطلبَ منه ما يحبه هو؛ كما رُوي في الحديث: «والعاجزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي»^(١).

ومما ينبغي للعاقل أن يترصد وقوع الجزاء:

فإنَّ ابنَ سيرين قال: عَيَّرْتُ رَجُلًا فَقُلْتُ: يَا مَفْلُسُ! فَأَفْلَسْتُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.
وقال ابنُ الجلاء: رَأَيْتُ شَيْخًا لِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى أَمْرَدٍ! فَقَالَ: مَا هَذَا؟! لَتَجِدَنَّ غِيْبَهَا.
فَنَسِيتُ الْقُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.
وبالضدِّ من هذا؛ كُلُّ مَنْ عَمِلَ خَيْرًا أَوْ صَحَّحَ نِيَّةً؛ فَلْيَنْتَظِرْ جَزَاءَهَا الْحَسَنَ، وَإِنْ امْتَدَّتْ الْمُدَّةُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف ٩٠].

فليعلم العاقل أنَّ ميزان العدل لا يُحابي.



حوادث الدنيا والآخرة

تَأَمَّلْتُ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَوَجَدْتُ حَوَادِثَ الدُّنْيَا حِسِّيَّةً طَبِيعِيَّةً وَحَوَادِثَ الْآخِرَةِ إِيمَانِيَّةً يَقِينِيَّةً. وَالْحِسِّيَّاتُ أَقْوَى جَذْبًا لِمَنْ لَمْ يَقْوِ عِلْمُهُ وَيَقِينُهُ.
وَالْحَوَادِثُ إِنَّمَا تَبْقَى بِكَثْرَةِ اسْبَابِهَا: فَمُخَالَطَةُ النَّاسِ، وَرُؤْيُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَالتَّعَرُّضُ بِالْمَلذُوثَاتِ؛ يَقْوِي حَوَادِثَ الْحَسِّ. وَالْعُزْلَةُ وَالْفِكْرُ، وَالنَّظَرُ فِي الْعِلْمِ؛ يَقْوِي حَوَادِثَ الْآخِرَةِ.

(١) أحمد (١٦٦٧٤)؛ والترمذي (٢٤٥٩)؛ وابن ماجه (٤٢٦٠).

وَيَبِينُ هَذَا بِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَيُبْصِرُ زِينَةَ الدُّنْيَا، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى الْمَقَابِرِ فَتَفَكَّرَ وَرَقَّ قَلْبُهُ؛ فَإِنَّهُ يُحَسُّ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فَرْقًا بَيِّنًا، وَسَبَبُ ذَلِكَ التَّعَرُّضُ بِأَسْبَابِ الْحَوَادِثِ.

فَعَلَيْكَ بِالْعَزَلَةِ وَالذِّكْرِ وَالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الْعَزْلَةَ حِمْيَةٌ، وَالْفَكْرَ وَالْعِلْمَ أَدْوِيَةٌ، وَالِدَوَاءُ مَعَ التَّخْلِيطِ لَا يَنْفَعُ، وَقَدْ تَمَكَّنْتَ مِنْكَ أَخْلَاطُ الْمَخَالِطَةِ لِلخَلْقِ وَالتَّخْلِيطِ فِي الْأَفْعَالِ؛ فَلَيْسَ لَكَ دَوَاءٌ إِلَّا مَا وَصَفْتُ لَكَ.

فَأَمَّا إِذَا خَالَطْتَ الْخَلْقَ وَتَعَرَّضْتَ لِلشَّهَوَاتِ، ثُمَّ رُمْتَ صَلَاحَ الْقَلْبِ؛ رُمْتَ الْمَتَنَعَ.



العزلة عن الشر لا عن الخير

مَا زَالَتْ نَفْسِي تُتَازَعُنِي - بِمَا يُوَجِّهُهُ مَجْلِسُ الْوَعظِ وَتَوْبَةُ التَّائِبِينَ وَرُؤْيَا الزَّاهِدِينَ - إِلَى الزُّهْدِ وَالْانْقِطَاعِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْانْفِرَادِ بِالْآخِرَةِ:

فَتَنَامَلْتُ ذَلِكَ، فَوَجَدْتُ عَمُومَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛

فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَرَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو لِي مَجْلِسٌ مِنْ خَلْقٍ لَا يُحْصُونَ، يَبْكُونَ وَيَتَذَبَّبُونَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ، وَيَقُومُ فِي الْغَالِبِ جَمَاعَةٌ يَتُوبُونَ وَيَقْطَعُونَ شُعُورَ الصَّبَا، وَلَقَدْ تَابَ عِنْدِي فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ أَكْثَرُ مِنْ مَائَةٍ، وَعَمُومُهُمْ صَبِيحًا قَدْ نُسِّوا عَلَى اللَّعِبِ وَالْانْهَالِكِ فِي الْمَعَاصِي.

فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ - لِبَعْدِ غَوْرِهِ ^(١) فِي الشَّرِّ - رَأَى أَنِّي أُجْتَذِبُ إِلَى مَنْ أُجْتَذِبُ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْ ذَلِكَ بِمَا يُزْخِرُهُ؛ لِيَخْلُوَ هُوَ بِمَنْ أُجْتَذِبُ مِنْ يَدِهِ.

وَلَقَدْ حَسَّنَ لِيَ الْانْقِطَاعَ عَنِ الْمَجَالِسِ، وَقَالَ: لَا يَخْلُو مِنْ تَصْنُوعِ الْخَلْقِ!

فَقُلْتُ: أَمَّا زَخْرَفَةُ الْأَلْفَاظِ وَتَزْوِيقُهَا وَإِخْرَاجُ الْمَعْنَى مِنْ مُسْتَحْسَنِ الْعِبَارَةِ؛ فَضِيلَةٌ لَا رَذِيلَةَ، وَأَمَّا أَنْ أَقْصِدَ النَّاسَ بِمَا لَا يَجُوزُ فِي الشَّرِّ؛ فَمَعَاذَ اللَّهِ.

وَأَمَّا الْانْقِطَاعُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعَزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ لَا عَنِ الْخَيْرِ، وَالْعَزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا تَعْلِيمُ الطَّالِبِينَ وَهَدَايَةُ الْمُرِيدِينَ؛ فَإِنَّهُ عِبَادَةُ الْعَالَمِ.

(١) لِبَعْدِ غَوْرِهِ: أَيِ لِدِهَائِهِ وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الشَّرِّ.

وإنما تميل النفس إلى ما يزخره الشيطان لمعنيين:
 * أحدهما: حبُّ البطالة؛ لأنَّ الانقطاع عندها أسهل.
 * والثاني: حبُّ المِدْحَةِ؛ فإنها إذا توسَّمت بالزُّهْد؛ كان مِثْلُ العوامِّ إليها أكثر.

○ ○ ○ ○ ○

بين العلم والعمل

تاملتُ المراد من الخلق: فإذا هو الذُّلُّ واعتقادُ التقصير والعجز.
 ومثَّلْتُ العلماءَ والرُّهَّاءَ العاملين صِنْفَيْن: فأقمتُ في صفِّ العلماء: مالكا وسفيان،
 وأبا حنيفة، والشافعي، وأحمد. وفي صفِّ العباد: مالك بن دينار، ورابعة، ومعرفة،
 الكرخي، وبشر بن الحارث.
 فكلَّمَا جدَّ العبَادُ في العبادة؛ صاح بهم لسانُ الحال: عبادتكم لا يتعداكم نفعُها،
 وإنما يتعدى نفعُ العلماء، وهم ورثةُ الأنبياء، وخلفاءُ في الأرض، وهم الذين عليهم
 المَعْوَلُ ولهم الفضلُ إذا أطرقوا وانكسروا وعلموا صدقَ تلك الحال... وجاء مالك بن
 دينار إلى الحسن يتعلَّم منه، ويقول: الحسنُ أستاذنا.
 وإذا رأى العلماءُ أنَّ لهم بالعلمِ فضلا؛ صاح لسانُ الحالِ بالعلماء: وهل المراد من
 العلمِ إلَّا العمل؟!!

وقال أحمد بن حنبل: وهل يُراد بالعلمِ إلَّا ما وصل إليه معروف؟!
 وقالت أم الدرداء لرجل: هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا. قالت: فلم تستكثِر من
 حجةِ الله عليك؟!!

فما يبلغُ من الكلِّ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].
 وجاء سفيان إلى رابعة، فجلسَ بين يديها يتتبعُ بكلامها.
 فدَلَّ العلماءُ العلمُ على أنَّ المقصودَ منه العملُ به، وأنه آله، فانكسروا واعترفوا
 بالتقصير.

فحصل الكلُّ على الاعترافِ والذُّلِّ، فاستخرجتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبوديةِ
 باعترافهم؛ فذلك هو المقصودُ من التَّكْلِيفِ.

مقاصد النكاح

تأملْتُ في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه، فرأيتُ أَنَّ الأصلَ الأكبرَ في وَضْعِهِ وجودُ النسل؛ لأنَّ هذا الحيوان لا يزالُ يتحلَّل، ثم يُخْلَفُ المتحلَّلُ الغذاءُ، ثم يتحلَّل من الأجزاء الأصلية ما لا يُخْلَفُهُ شيءٌ؛ فإذا لم يكنْ بدٌّ من فَنَائِهِ، وكان المرادُ امتدادُ أزمان الدنيا؛ جعلَ النسلُ خَلْفًا عن الأصلِ.

ولما كانت صورةُ النكاح تأبأها النفوسُ الشريفة؛ مِن كَشْفِ العَوْرَةِ، وملاقاة ما لا يُسْتَحْسَنُ لنفسِهِ؛ جُعِلَتِ الشهوةُ تحتَ عليه؛ لِيَحْصُلَ المقصودُ.

ثم رأيتُ هذا المقصودَ الأصليَّ يتبعُهُ شيءٌ آخرٌ، وهذا استفراغُ هذا الماء الذي يؤدي دوامَ احتقانه؛ فإذا زاد اجتماعُ المنيِّ؛ أَقْلَقَ على نحو إقلاقِ البَوْلِ للحاقنِ؛ إِلَّا أَنَّ إقلاقَهُ من حيثُ المعنى أكثرُ من إقلاقِ البَوْلِ من حيثُ الصُّورَةِ، فتوجبُ كثرةُ اجتماعِهِ وطولُ احتباسِهِ أمراضًا صعبةً.

فَمَنْ أَرَادَ نَجَابَةَ الْوَلَدِ وَقِضَاءَ الْوَطَرِ؛ فَلْيَتَخَيَّرِ الْمُنْكَوحَ؛

إن كان زوجةً؛ فليَنظُرْ إليها؛ فإذا وقعتْ في نفسه، فليتزوجها، وقد نَصَّ أحمدُ على جوازِ أن يُبَصِّرَ الرجلُ من المرأة التي يريدُ نِكَاحَهَا ما هو عورةٌ؛ يشيرُ إلى ما يزيدُ على الوجهِ.

ثم ينبغي للمتخيِّرُ أن يتفرَّسَ^(١) في الأخلاقِ؛ فإنها من الخفيِّ، وإن الصورةَ إذا خَلَّتْ من المعنى؛ كانت كخضراءِ الدَّمَنِ^(٢)، ونجابةِ الولدِ مقصودةً.

فمن قَدَّرَ على امرأةٍ صالحيةٍ في الصُّورَةِ والمعنى؛ فَلْيَغْمِضْ عن عوراتِها، ولتجتهدْ هي في مَراضِيهِ؛ من غيرِ قَرَبٍ يُمَلُّ ولا بُعْدٍ يُنْسِي، ولتُقَدِّمْ على التَّصَنُّعِ له؛ يَحْصُلَ الغرضانِ منها؛ الولدُ وقضاءُ الوَطَرِ، فإذا قَدَّرَ على الاستكثارِ، فأضافَ إليها سِوَاهَا، عالمًا أنه بذلك يبلغُ الغرضَ الذي يُفَرِّغُ قلبَهُ زيادةً تفرِغَ؛ كان أفضلَ لحاله.

فإن خاف من وجودِ الغَيْرَةِ ما يَشْغَلُ القلبَ الذي قد اهتمَمْنَا بجمعِ هِمَّتِهِ، أو

(١) يتفرَّس: ينظر ويتثبت.

(٢) خضراء الدمن: النبات الأخضر الحسن في الأرض الملبدة بالبول والبرع.

خاف وجود مُسْتَحْسَنَةٍ تَشْغُلُ قلبه عن ذِكْرِ الآخرة، أو تَطْلُبُ منه ما يوجبُ خروجه عن الورع؛ فحسبه واحدة.
ونكاح المرأة المحبوبة يَسْتَفْرِغُ الماءَ المجتمع، فيوجبُ نجابة الولدِ وتمامه، وقضاء الوَطَرِ بكمالِهِ.

○ ○ ○ ○ ○

حلاوة الطاعة وشؤم المعصية

كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ تعالى في الدنيا؛ فهو أُنْمُوذُجٌ^(١) ما في الآخرة، وكلُّ شَيْءٍ يجري فيها أُنْمُوذُجٌ ما يجري في الآخرة.
فأما ما يجري في الدُّنيا؛ فكلُّ ظالمٍ معاقبٌ في العاجلِ على ظُلْمِهِ قبلَ الآجلِ، وكذلك كُلُّ مَذْنِبٍ ذَنْبٍ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].
وربما رأى العاصي سلامةً بدنه وماله، فظنَّ أن لا عقوبة، وغفلتُه عما عوقِبَ به عقوبةً.
وقد قال الحكماء: المعصيةُ بعد المعصيةِ عقابُ المعصيةِ، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنةِ.

وربما كان العقاب العاجل معنويًّا؛ كما قال بعضُ أحبارِ بني إسرائيل: يا ربِّ! كم أعصيك ولا تعاقبني! فقليلُ له: كم أعاقبك وأنت لا تدري! أليس قد حرمتك حلاوة مُناجاتي؟

فَمَنْ تَأَمَّلَ هذا الجنسَ من المعاقبةِ؛ وَجَدَهُ بالمرصادِ، فربَّ شخصٍ أطلقَ بَصَرَهُ فحرمةُ اللهُ اعتبارًا بصيرته، أو لسانه فحرمةُ الله صفاء قلبه، أو أثرُ شبهةٍ في مطعمه فأظلم سِرُّه وحُرْمُ قيام الليل وحلاوة المناجاة... إلى غير ذلك؛ وهذا أمرٌ يعرفه أهلُ محاسبة النفسِ.
وعلى ضده يجدُ من يتَّقِي الله تعالى من حسنِ الجزاءِ على التَّقوى عاجلاً؛ فأما المقابلةُ الصريحةُ في الظاهر؛ فَقَلَّ أن تحتبس، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إن العبدَ ليُحرَّمُ

(١) أُنْمُوذُج: مثال.

الرَّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»^(١). ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة؛ رأى الجزاء، وفهم.
كما قال الفضيل: إني لأعصي الله عزَّ وجلَّ فأعرفُ ذلك في خُلُقِ دابتي وجاريتي.
وعن أبي عثمان النيسابوري: أنه انقطع شِسْعُ نعلِه في مُصِيبَةِ إلى الجمعة، فتَعَوَّقَ
لإصلاحِه ساعة، ثم قال: ما انقطعَ إلَّا لأني ما اغتسلتُ غُسلَ الجمعة^(٢).
ولو أن شخصاً ترك معصيةً لأجل الله تعالى؛ لَرَأَى ثَمَرَةَ ذلك، وكذلك إذا فعل
طاعةً.



خبايا النفوس

نظرتُ في الأدلة على الحقِّ سبحانه وتعالى، فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيتُ من
أعجبها:

أنَّ الإنسانَ قد يُخْفِي ما لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ فيُظْهِرُهُ الله سبحانه عليه ولو بعدَ
حينٍ، ويُنْطِقُ الألسنةَ به وإنْ لم يشاهدهُ الناسُ، وربما أوقعَ صاحبه في آفةٍ يفضحُه بها بين
الخلقِ، فيكونُ جواباً لكلِّ ما أخفى من الذنوبِ، وذلك ليعلمَ الناسُ أن هنالك مَنْ
يجازي على الزَّلَلِ، ولا ينفعُ مِنْ قَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ حِجَابٌ ولا استتارٌ، ولا يُضَاعُ لديه عملٌ.
وكذلك يُخْفِي الإنسانُ الطاعةَ، فتظهرُ عليه، ويتحدَّثُ الناسُ بها وبأكثرَ منها،
حتى إنهم لا يعرفونَ له ذنباً ولا يذكرونَه إلَّا بالمحاسنِ؛ ليعلمَ أنَّ هنالك ربّاً لا يُضِيعُ
عَمَلٌ عَامِلٍ. وإنَّ قلوبَ الناسِ لتَعْرِفُ حالَ الشخصِ وتُحِبُّه، أو تَأْباه وتُدْحه، أو تَمْدُحه
وَفَقَّ ما يتحقَّقُ بينه وبين الله تعالى؛ فإنه يكفيه كلُّ هَمٍّ، ويدفعُ عنه كلَّ شَرٍّ.
وما أصلَحَ عبدٌ ما بينه وبين الخلقِ دونَ أنْ يَنْظُرَ إلى الحقِّ؛ إلَّا انعكَسَ مَقْصُودُهُ،
وعاد حامدُهُ ذامًّا.



(١) أحمد (٢١٨٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٢).

(٢) الآن قل من يفعل ذلك، وإنما يقال: فلان حسدني، فلان نظر إليّ، ولا يكاد ينظر في أفعاله ومعاصيه.

لذة قهر الهوى

رأيتُ مَيَلَ النفسِ إلى الشَّهَوَاتِ زائداً في المقدارِ، حتى إنَّها إذا مالتْ؛ مالتْ بالقلبِ والعقلِ والدَّهْنِ؛ فلا يكادُ المرءُ يَنْتَفِعُ بشيءٍ من النَّصَحِ!
فَصِخْتُ بها يوماً وقد مالتْ بِكُلِّيتها إلى شهوةٍ: وَيَحْكُ! قفي لحظةً؛ أَكَلَمَكِ كلماتٍ، ثم افعلي ما بدا لك!
قالت: قل؛ أسمع.

قلتُ: قد تَقَرَّرَ قِلَّةُ مَيْلِكَ إلى المباحاتِ من الشَّهَوَاتِ، وأمَّا جُلُّ مَيْلِكَ؛ فإلى المحرَّماتِ، وأنا أَكْشِفُ لك عن الأمرين؛ فربما رأيتَ الحُلُوتَيْنِ مُرَيْنِ.

أما المباحاتُ مِنَ الشَّهَوَاتِ؛ فمُطَلَّقةٌ لك، ولكنَّ طريقها صعبٌ: لأنَّ المالَ قد يعجزُ عنها، والكسبُ قد لا يُحْصِلُ مُعْظَمَها، والوقتُ الشريفُ يذهبُ بذلك. ثم شُغِلَ القلبُ بها وقتَ التَّحْصِيلِ، وفي حالةِ الحُصُولِ، وبَحَذَرِ الفَوَاتِ. ثم يُنْغَصُّها^(١) من النَّقْصِ ما لا يَخْفَى على مُمِيزٍ: إن كان مَطْعَمًا؛ فَالشَّيْبُ يُجِدُّ آفاتٍ، وإن كان شَخْصًا؛ فَالْمَلَلُ أو الْفِرَاقُ أو سُوءُ الْخُلُقِ، ثم أَلَدُ النِّكَاحِ أَكْثَرُهُ إِيهَانًا لِلْبَدَنِ.. إلى غير ذلك مما يطولُ شرحُه.

وأما المحرَّماتُ؛ فَتَشْتَمِلُ على ما أشرنا إليه من المباحاتِ، وتزِيدُ عليها بأُفَّة الْعِرْضِ، وَمُظَنَّةُ عِقَابِ الدُّنْيَا وَفُضِيحَتِهَا، وهناك وعيدُ الآخرة، ثم الْجَزَعُ كُلُّما ذَكَرَها التَّائِبُ.

وفي قُوَّةِ قَهْرِ الْهَوَى لَذَّةٌ تَزِيدُ على كُلِّ لَذَّةٍ، ألا ترى إلى كُلِّ مغلوبٍ بالهوى كيف يكون ذليلاً لأنه قَهَرٌ؛ بخلافِ غَالِبِ الْهَوَى؛ فإنه يكونُ قَوِيَّ الْقَلْبِ عَزِيزًا لأنه قَهَرٌ!

فالحذرُ الحذرُ من رُؤيةِ الْمُشْتَهَى بعَيْنِ الْحُسْنِ كما يرى اللَّصُّ لَذَّةَ أَخْذِ الْمَالِ مِنَ الْحِرْزِ ولا يرى بعَيْنِ فِكْرِهِ الْقَطْعَ!

وليفتح الإنسانُ عَيْنَ الْبَصِيرَةِ؛ لِتَأْمُلِ الْعَوَاقِبَ، واستحالةِ اللَّذَّةِ نَغْصَةً، وانقلابها عن كونها لَذَّةً؛ إمَّا لَمَلٍ، أو لغيره من الآفاتِ، أو لانقطاعها بامتناعِ الْحَبِيبِ، فتكونُ الْمَعْصِيَةُ الْأُولَى كُلْقَمَةً تَنَاقُها جَائِعٌ، فما رَدَّتْ كُلَّبَ الْجُوعِ^(٢)، بل شَهَّتِ الطَّعَامَ.

(١) ينغصها: يكدِّرها.

(٢) كُلَّبَ الْجُوعِ: أذاه وشره.

وليتذكر الإنسان لذة قهر الهوى مع تأمل فوائد الصبر عنه؛ فمن وفق لذلك؛ كانت سلامته قريبة منه.

○ ○ ○ ○ ○

أحوال النفس

خطر لي خاطر؛ والمجلس قد طاب، والقلوب قد حضرت، والعيون جارية، والرؤوس مُطَرَقَة، والنفوس قد ندمت على تفریطها، والعزائم قد نهضت لإصلاح شؤونها، والسنة اللوم تعمل في الباطن على تضييع الحزم وترك الحذر، فقلت لنفسي: ما بال هذه اليقظة لا تدوم؟! إني أرى النفس واليقظة في المجلس متصادقين متصافيين؛ فإذا قمنا عن هذه التربة؛ وقعت الغربة.

فتأملت ذلك، فرأيت أن النفس ما تزال متيقظة، والقلب ما يزال عارفاً؛ غير أن القواطع كثيرة، والفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة الله سبحانه وتعالى قد كلَّ مما يُستعمل في اجتلاب الدنيا وتحصيل حوائج النفوس، والقلب منغمس في ذلك، والبدن أسير مستخدم.

وبينا الفكر يجول في اجتلاب الطعام والشراب والكسوة، وينظر في صدق ذلك، وما يدخره لغده وسنته؛ اهتم بخروج الحدث وتشاغل بالطهارة، ثم اهتم بخروج الفضلات المؤذية، ومنها المنى فاحتاج إلى النكاح، فعلم أنه لا يصح إلا باكتساب كسب الدنيا، فتفكر في ذلك وعمل بمقتضاه، ثم جاء الولد، فاهتم به وله، وإذا الفكر عامل في أصول الدنيا وفروعها.

إذا حصّر الإنسان المجلس؛ فإنه لا يحضر جائعاً ولا حاقناً^(١)، بل يحضره جامعاً لهيمته، ناسياً ما كان من الدنيا على ذكره، فيخلو الوعظ بالقلب، فيذكره بما ألف، ويجذبه بما عرّف، فينهض عمال القلب في زوارق عرفانه، فيحضرون النفس على باب المطالبة بالتفريط، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب، فتجري عيون الندم، وتنعقد عزائم الاستدراك.

(١) حاقناً: الحاقن: الذي احتبس بوله فتجمع.

ولو أنَّ هذه النفس خَلَّتْ عن المعهوداتِ التي وَصَفْتُها؛ لتشاغلت بِخِدْمَةِ باريها،
ولو وقعتْ في سَوْرَةٍ حُبِّه؛ لاستوحشتْ عن الكُلِّ شُغلاً بِقُرْبِهِ.
غيرَ أَنِّي تَلَمَّحْتُ في هذه الحالةِ دَقِيقَةً، وهي أَنَّ النفسَ لو دامتْ لها اليَقَظَةُ؛ لوقعتْ
فيها هوْشَرٌ من قُوَّتِ ما فاتها، وهو العُجْبُ بحالها، والاحتقارُ لِجَنْسِها! وربما تَرَكَّتْ بقوَّةِ
عِلْمِها وعِرْفانِها إلى دعوى قولها: لي، وعندي، وأستحق... فَتَرَكَّها في حَوْمَةِ ذُنُوبِها
تَتَخَبَّطُ؛ فإذا وقفتْ على الشاطِئِ؛ قامتْ بِحَقِّ ذِلَّةِ العُبُودِيَّةِ، وذلك أَوَّلُها.
وإلى هذا المعنى أشار الحديثُ الصحيحُ: «لو لم تَذُنُّوا؛ لَذَهَبَ اللهُ بِكم، وجاء
بِقَوْمٍ يُذُنُّونَ، فيستَغْفِرُونَ، فيَغْفِرُ لَهُمُ»^(١).



سُسْ نَفْسَكَ

تأملْتُ جهادَ النفس، فرأيتُه أعظمَ الجهادِ، ورأيتُ خَلْقًا لا يفهمونَ معناه؛ لأنَّ
فيهم مَنْ مَنَعَهَا حظوظَها على الإطلاق، وذلك غلطٌ من وجهين:
أحدهما: أنه رَبُّ مانعٍ لها شَهْوَةٌ أعطاها بالمنع أوفى منها: مثلُ أنْ يَمْنَعَهَا مباحًا،
فَيُسْتَهَرَّ بمنعِها إيَّاهَا ذلك، فترضى النفسُ بالمنع لأنها قد استبدلتْ به المدحَ. وأخفى من
ذلك أنْ يَرَى - بمنعِها إيَّاهَا ما مَنَعَ - أنه قد فَضَّلَ سِوَاهُ يَمْنَنَ لم يمنعها ذلك.
وهذه دفاثنُ تحتاجُ إلى مَنَاقِشٍ فَهَمُ يُحَلِّصُها.

والوجه الثاني: أننا قد كَلَّفْنَا حَفَظَها، ومن أسبابِ حَفَظِها مِيلُها إلى الأشياءِ التي
تُقيِّمُها؛ فلا بدَّ من إعطائها ما يُقيِّمُها، وأكثرُ ذلك أو كَلَّهُ عما تشتهيه، ونحن كالوكلاءِ في
حَفَظِها؛ لأنها ليستْ لنا، بل هي وديعةٌ عندنا؛ فمَنَعُها حقوقَها على الإطلاقِ خطرٌ.
ثم رَبُّ شَدَّ أوجبَ استرخاءً، ورَبُّ مُضَيِّقٍ على نَفْسِهِ قَرَّتْ منه فَصَعَبَ عليه تلافِيها.
وإنما الجهادُ لها كجهادِ المريضِ العاقلِ؛ يَحْمِلُها على مَكْرُوهِها في تناولِ ما ترجو به
العافية، ويذوَّبُ في المِراةِ قليلًا من الحلاوة، ويتناولُ من الأَغْذِيَةِ مقدارًا ما يصفُه
الطبيبُ، ولا تَحْمِلُه شهوَّتُهُ على موافقةِ غرضِها من مَطْعَمٍ ربما جَرَّ جوعًا، ومن لُقْمَةٍ ربما

حَرَمَتْ لُقَمَاتٍ.

فكذلك المؤمنُ العاقل؛ لا يترك لجامها، ولا يُهملُ مِقْوَدَها، بل يُرخي لها في وقتِ الطَّوْلِ^(١) يده؛ فما دامت على الجادَّة؛ لم يضايقها في التضييقِ عليها فإذا رآها قد مالت؛ رَدَّها باللُّطْفِ، فَإِنْ وَكَّتْ وَأَبَتْ؛ فبالعنفِ، ويحبسُها في مقامِ المداراةِ كالزوجةِ التي مَبْنَى عَقْلُها على الضَّعْفِ والقِلَّة؛ فهي تُدَارَى عند نشوزها بالوَعْظِ، فَإِنْ لم تَصْلُحْ؛ فبالهجرة، فَإِنْ لم تستقمْ؛ فبالضربِ، وليس في سياطِ التأديبِ أجودُ من سَوْطِ عَزْمٍ. هذه مجاهدةٌ من حيثِ العملِ.

فاما من حيثِ وعظها وتانيبها؛ فينبغي لمن رآها تسكنُ للخلق وتعرضُ بالدناءةِ من الأخلاقِ أَنْ يُعَرِّفَها تعظيماً خالقها لها، فيقول: أَلَسْتَ التي قال فيك: خلقتك بيدي، وأسجدتُ لِكَ ملائكتي، وارتضاكِ للخلافةِ في أرضه، وراسلكِ، واقرضَ منك واشترى؟! فَإِنْ رآها تتكبرُ؛ قال لها: هل أَنْتِ إِلَّا قطرةٌ من ماء مَهِين، تقتُلُكَ شَرْقَةٌ، وتُؤَلِّكُ بَقَّةٌ؟! وَإِنْ رَأَى تَقْصِيرَها؛ عَرَّفَها حَقَّ الموالي على العبيد. وَإِنْ وَكَّتْ^(٢) في العملِ؛ حَدَّثَها بجزيل الأجر. وَإِنْ مالت إلى الهوى؛ خَوَّفَها عظيمَ الوزرِ، ثم يحذِّرها عاجلَ العقوبةِ الحسيَّةِ؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمعنويَّةِ؛ كقوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَابِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فهذا جهادٌ بالقول، وذاك جهادٌ بالفعل.

○ ○ ○ ○ ○

أسبابُ تخلفِ إجابةِ الدعاءِ

رَأَيْتُ من البلاءِ أَنَّ المؤمنَ يدعو فلا يُجابُ، فيكثُرُ الدعاءُ، وتطولُ المدةُ، ولا يرى أثراً للإجابة!

فينبغي له أَنْ يعلمَ أَنَّ هذا من البلاءِ الذي يحتاجُ إلى الصبرِ، وما يَعْرِضُ للنفسِ

(١) الطول: الحبل.

(٢) وكَّتْ: فترت وضعفت وكَلَّتْ.

مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي تَأْخِيرِ الْجَوَابِ مَرَضٌ يَحْتَاجُ إِلَى طَبٍّ.
ولقد عَرَضَ لِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْجَنْسِ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَتْ بِي نَازِلَةٌ، فَدَعَوْتُ وَبَالَغْتُ، فَلَمْ
أَرَ الْإِجَابَةَ، فَأَخَذَ إِبْلِيسُ يَجُولُ فِي حَلَبَاتِ كَيْدِهِ.

فتارة يقول: الكرمُ واسعٌ والبخلُ معدومٌ؛ فما فائدة تأخير الجوابِ؟!
فقلتُ له: اخسأ يا أَعِينُ! فما أحتاجُ إلى تقاضٍ، ولا أَرْضَاكَ وَكَيْلًا.
ثم عدتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ: يَا بَاكٍ وَمَسَاكِنَةٌ وَسَوْسِيتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَأْخِيرِ الْإِجَابَةِ
إِلَّا أَنْ يَبْلُوكَ الْمَقْدَرُ فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ؛ لَكَفَى فِي الْحِكْمَةِ.

قالت: فَسَلِّني عَنْ تَأْخِيرِ الْإِجَابَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ النَّازِلَةِ!
* فَقُلْتُ: قَدْ ثَبَّتَ بِالْبَرَهَانِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَالِكٌ، وَلِلْمَالِكِ التَّصَرُّفُ بِالْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ؛ فَلَا
وَجَهَ لِلْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ.

* وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ ثَبَّتَتْ حُكْمَتُهُ بِالْأَدْلَةِ الْقَاطِعَةِ؛ فَرُبَّمَا رَأَيْتَ الشَّيْءَ مُصْلِحَةً وَالْحِكْمَةَ لَا
تَقْتَضِيهِ، وَقَدْ يَنْخَفِى وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِيمَا يَفْعَلُهُ الطَّبِيبُ مِنْ أَشْيَاءٍ تُؤْذِي فِي الظَّاهِرِ يَقْصِدُ
بِهَا الْمَصْلِحَةَ؛ فَلَعَلَّ هَذَا مِنْ ذَاكَ.

* وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ التَّأْخِيرُ مُصْلِحَةً وَالِاسْتِعْجَالُ مَضَرَّةً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا
يُزَالُ الْعَبْدُ فِي خَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ؛ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي!»^(١).

* وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ امْتِنَاعُ الْإِجَابَةِ لَاقِيَةً فِيكَ؛ فَرُبَّمَا يَكُونُ فِي مَأْكُولِكَ شُبْهَةٌ، أَوْ قَلْبُكَ
وَقَتَّ الدُّعَاءِ فِي غَفْلَةٍ، أَوْ تُرَادُّ عَقُوبَتُكَ فِي مَنْعِ حَاجَتِكَ لِذَنْبٍ مَا صَدَقْتَ فِي التَّوْبَةِ مِنْهُ.
فَابْحَثِي عَنْ بَعْضِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ؛ لَعَلَّكَ تَوْفَّقِينَ بِالْمَقْصُودِ.

* وَالْخَامِسُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ الْبَحْثُ عَنْ مَقْصُودِكَ بِهَذَا الْمَطْلُوبِ؛ فَرُبَّمَا كَانَ فِي حَصُولِهِ
زِيَادَةٌ إِثْمٍ، أَوْ تَأْخِيرٌ عَنْ مَرْتَبَةٍ خَيْرٍ؛ فَكَانَ الْمَنْعُ أَصْلَحَ.

* وَالسَّادِسُ: أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ فَقْدُ مَا فَقَدْتِهِ سَبَبًا لِلْوُقُوفِ عَلَى الْبَابِ وَاللَّجَأِ، وَحَصُولِهِ سَبَبًا
لِلِاسْتِغْثَالِ بِهِ عَنِ الْمَسْئُولِ. وَهَذَا الظَّاهِرُ؛ بِدَلِيلٍ أَنَّهُ لَوْلَا هَذِهِ النَّازِلَةُ؛ مَا رَأَيْنَاكَ عَلَى
بَابِ اللَّجَأِ.

فالحق عز وجل عليم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم^(١) في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه؛ يستغيثون به؛ فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه؛ ففيه جالك. وإذا تدبرت هذه الأشياء؛ تشاغلت بها هو أنفع لك من حصول ما فاتك؛ من رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب.



موقف المؤمن عند الشدائد

من نزلت به بليّة، فأراد تحقيقها^(٢)؛ فليصورها أكثر مما هي؛ تهن، وليتخايل ثوابها، وليتوهم نزول أعظم منها؛ ير الرّبع في الاقتصار عليها، وليتلمخ سرعة زوالها؛ فإنه لو لا كرب الشدة؛ ما رجيت ساعات الراحة، وليعلم أن مدة مقامها عنده كمدة مقام الضيف؛ فليتفقد حوائجه في كل لحظة؛ فيا سرعة انقضاء مقامه! ويا لذة مدائجه وبشره في المحافل ووصف المضيف بالكرم! فكذاك المؤمن في الشدة؛ ينبغي أن يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، ويتلمخ الجوارح؛ مخافة أن يدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط، فكأن قد لاح فجر الأجر، فانجاب ليل البلاء ومُدح الساري بقطع الدجى^(٣)؛ فما طلعت شمس الجزاء؛ إلّا وقد وصل إلى منزل السلامة.



العلم يدعو إلى العمل

لما رأيت رأي نفسي في العلم حسناً؛ فهي تقدّمه على كل شيء، وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على

(١) فلذعهم: ألهم.

(٢) تحقيقها: إزالتها.

(٣) الدجى: سواد الليل وظلمته.

النوافل: أي رأيت كثيرًا ممن شغلَّتْهم نوافلُ الصلاة والصَّومِ عن نوافلِ العلمِ عاد ذلك عليهم بالقَدَحِ في الأصول؛ فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادَّةِ السَّهلةِ والرأيِ الصحيحِ. إلَّا أني رأيتها واقفةً مع صورةِ التشاغلِ بالعلمِ، فصَحْتُ بها: فما الذي أفادَكَ العلمُ؟! أين الخوفُ؟! أين القلقُ؟! أين الحذرُ؟!

* أو ما سمعت بأخبار أخابرٍ في تعبُّدِهم واجتهادِهم؟!

* أما كان الرسول ﷺ سيدَ الكلِّ، ثم إنه قام حتى ورمَتْ قدماه؟!

* أما كان أبو بكر ﷺ شجِيَّ النُشَيْجِ كثيرَ البكاءِ؟!

* أما كان في خَدِّ عمرَ ﷺ خَطَّانِ من آثارِ الدُّموعِ؟!

* أما كان عثمان ﷺ يُحْتِمُ القرآنَ في رَكْعَةٍ؟!

* أما كان عليُّ ﷺ يبكي بالليل في محرابِهِ حتى تُخْضَلَ لحيتهُ بالدموعِ، ويقول: يا دُنْيَا: غُرِّي غيري.

* أما كان الحسنُ البصريُّ يحيا على قُوَّةِ القَلْقِ.

* أما كان سعيدُ بن المسيَّبِ ملازمًا للمسجد، فلم تُفُتْ صلاةٌ في جماعةٍ أربعينَ سنةً؟!

* أما صامَ الأسودُ بن يزيدٍ حتى اخْضَرَ واصْفَرَ؟!

* أما تعلمين أخبارَ الأئمةِ الأربعةِ في زهدهم وتعبُّدِهم؛ أبو حنيفةً، ومالكٌ والشافعيُّ، وأحمدُ؟!

فاخْذَرِي من الإخلاقِ إلى صورةِ العلمِ مع تركِ العَمَلِ به؛ فإنها حالةُ الكُسَالَى الزَّمْنِي (١).



فَضْلُ الْعِلْمِ

مما يزيدُ العلمَ عندي فضلًا: أنَّ قومًا تشاغلوا بالتعبُّدِ عن العلمِ، فوقفوا عن الوصولِ إلى حقائقِ الطَّلَبِ.

فَرُوي عن بعض القدماءِ أنه قالَ لرجلٍ: يا أبا الوليدِ! إن كنتَ أبا الوليدِ! يتورَّع أن

(١) الزماني: المرضي.

يَكْنِيهِ وَلَا وَلَدَ لَهُ!

ولو أوغل^(١) هذا في العلم؛ لَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُنِيَ صُهِبًا أبا يحيى، وكنى طفلاً فقال: «يا أبا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ التَّغْيِيرُ؟»^(٢).

ومن المتزهدين أقوامٌ يَرَوْنَ التَّوَكُّلَ قَطَعَ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا. وهذا جهلٌ بالعلم؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ: دَخَلَ الْغَارَ، وَلَبَسَ الدَّرْعَ، وَحَفَرَ الْخَنْدَقَ، وَدَخَلَ مَكَّةَ فِي جَوَارِ الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَكَانَ كَافِرًا، وَقَالَ لِسَعْدٍ: «لَأَنْ تَدْعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(٣)؛ فَالْوُقُوفُ مَعَ الْأَسْبَابِ مَعَ نِسْيَانِ الْمُسَبِّبِ غَلَطٌ.

وَكُلُّ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ إِنَّمَا تُقَطَّعُ بِمَصْبَاحِ الْعِلْمِ، وَلَقَدْ ضَلَّ مَنْ مَشَى فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ أَوْ فِي رُزَاقِ الْهَوَى.



تأملات في تدبير الخالق

لَمَّا تَلَمَّحْتُ تَدْبِيرَ الصَّانِعِ فِي سَوَاقِ رِزْقِي؛ بِتَسْخِيرِ السَّحَابِ، وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ بِرَفْقٍ، وَالْبَذْرِ دَفِينٍ تَحْتَ الْأَرْضِ؛ كَالْمَوْتِ، قَدْ عَفَنَ، يَنْتَظِرُ نَفْخَةَ مِنْ صُورِ الْحَيَاةِ؛ فَإِذَا أَصَابَتْهُ؛ اهْتَزَّ خَضِرًا، وَإِذَا انْقَطَعَ عَنْهُ الْمَاءُ؛ مَدَّ يَدَ الْطَلَبِ يَسْتَعْطِي، وَأَمَالَ رَأْسَهُ خَاضِعًا، وَلَبَسَ حُلَّ التَّغْيِيرِ؛ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَا أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَبَرودةِ الْمَاءِ، وَلُطْفِ النِّسِيمِ، وَالْأَرْضِ!

فَسُبْحَانَ مَنْ أَرَانِي - فِيمَا يُرَبِّينِي بِهِ - كَيْفَ تَرَبَّيْتِي فِي الْأَصْلِ.
فَيَا أَيُّهَا النَّفْسُ الَّتِي قَدْ أَطْلَعْتَ عَلَى بَعْضِ حِكْمِهِ! قَبِّحْ بِكَ وَاللَّهِ الْإِقْبَالَ عَلَى غَيْرِهِ.
ثُمَّ الْعَجَبُ! كَيْفَ تُقْبَلِينَ عَلَى فَقِيرٍ مِثْلِكَ، يَنَادِينِي لِسَانُ حَالِهِ: بِي مِثْلُ مَا بَكَ يَا حَمَامُ؟!
فَارْجِعِي إِلَى الْأَصْلِ الْأَوَّلِ، وَاطْلُبِي مِنَ الْمُسَبِّبِ، وَيَا طُوبَى لَكَ أَنْ عَرَفْتِيهِ! فَإِنَّ

(١) أوغل: تعمق.

(٢) البخاري (٦٢٠٣)؛ ومسلم (٢١٥٠).

(٣) البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨).

عرفانه مُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

○ ○ ○ ○ ○

الْأَسْبَابُ لَا تَنَافِي التَّوَكُّلَ

عَرَضْتُ لِي حَالَةٌ لَجَأْتُ فِيهَا بِقَلْبِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحَدَّهُ؛ عَالِمًا بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ نَفْعِي وَدَفْعِ ضَرِّي سِوَاهُ، ثُمَّ قُمْتُ أُتَعَرِّضُ بِالْأَسْبَابِ.
فَأَنْكَرَ عَلَيَّ يَقِينِي، وَقَالَ: هَذَا قَدْ حُجِّ فِي التَّوَكُّلِ!
فَقُلْتُ: لَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَهَا مِنَ الْحِكْمِ، وَكَانَ مَعْنَى حَالِي: أَنَّ مَا وَضَعْتَ لَا يُفِيدُ وَأَنَّ وجودَهُ كَالْعَدَمِ!

وَمَا زَالَتِ الْأَسْبَابُ فِي الشَّرْعِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتِهِمْ﴾ [النساء: ١٠٢].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف: ٤٧].

وَقَدْ ظَاهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ دَرْعَيْنِ^(١).

وَمَا خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ؛ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى دُخُولِ مَكَّةَ، حَتَّى بَعَثَ إِلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ، فَقَالَ: «أَدْخُلْ فِي جَوَارِكِ»^(٢)؛ وَقَدْ كَانَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَدْخُلَ مَتَوَكِّلًا بِلا سَبَبٍ.
فَإِذَا جَعَلَ الشَّرْعُ الْأُمُورَ مَنُوطَةً بِالْأَسْبَابِ؛ كَانَ إِعْرَاضِي عَنِ الْأَسْبَابِ دَفْعًا لِلْحِكْمَةِ. وَلِهَذَا أَرَى أَنَّ التَّدَاوِيَّ مَدْبُوبٌ إِلَيْهِ.

فَإِنَّ الْحَدِيثَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً؛ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً؛ فَتَدَاوَوْا»^(٣)، وَمَرْتَبَةُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ الْأَمْرُ، وَالْأَمْرُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا أَوْ نَدْبًا، وَلَمْ يَسْبِقْهُ حَظَرٌ؛ فَيَقَالُ: هُوَ أَمْرٌ بِإِبَاحَةٍ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؑ: «كُلُّ مَنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ

(١) أحمد (١٥٢٩٥)؛ وأبو داود (٢٥٩٠)؛ وابن ماجه (٢٨٠٦).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة، والطبري في تاريخ الأمم والملوك (١/٥٥٥).

(٣) البخاري (٥٦٧٨).

مِنْ هَذَا» (١).

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنْ تَرَكَهُ أَفْضَلُ؛ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِلَا حِسَابٍ...»، ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ: «لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطَبِرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (٢).

وهذا لا ينافي التداوي؛ لأنه قد كان أقوامٌ يَكْتَوُونَ لثَلَا يَمْرَضُوا، وَيَسْتَرْقُونَ لثَلَا تُصِيبَهُمْ نَكْبَةٌ، وَقَدْ كَوَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ (٣)، وَرَخَّصَ فِي الرُّقْيَةِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (٤)، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمَرَادَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ.



الإسلام والنظافة

تَلَمَّحْتُ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِهْمَالَ أَبْدَانِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُنْظِفُ فَمَهَ بِالْخِلَالِ (٥) بَعْدَ الْأَكْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُنْقِي يَدَيْهِ فِي غَسْلِهَا مِنَ الزَّهْمِ (٦)، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَكَادُ يَسْتَاكُ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يَكْتَحِلُ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يِرَاعِي الْإِبْطَ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَيَعُودُ هَذَا الْإِهْمَالُ بِالْخِلَالِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا.

أَمَّا الدِّينُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَ الْمُؤْمِنَ بِالتَّنْظِفِ وَالْإِغْتِسَالِ لِلْجُمُعَةِ لِأَجْلِ اجْتِمَاعِهِ بِالنَّاسِ، وَنَهَى عَنِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ إِذَا أَكَلَ الثُّومَ، وَأَمَرَ الشَّرْعُ بِتَنْقِيَةِ الْبَرَاجِمِ (٧) وَقَصِّ الْأَظْفَارِ وَالسَّوَاكِ وَالِاسْتِحْدَادِ (٨)... وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآدَابِ؛ فَإِذَا أُهْمِلَ ذَلِكَ؛ تُرِكَ مَسْنُونُ الشَّرْعِ، وَرَبِمَا تَعَدَّى بَعْضُ ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ الْعِبَادَةِ؛ مِثْلُ أَنْ يُهْمَلَ أَظْفَارُهُ، فَيَجْمَعَ تَحْتَهُ

(١) الترمذي (٢٠٣٧)؛ وأحد (٢٦٥١٣).

(٢) البخاري (٥٧٠٥)؛ ومسلم (١٩١).

(٣) أبو داود (٣٨٦٦)، والترمذي (٢٠٥٠)، وابن ماجه (٣٤٩٤)، وأحد (١٤٤٨٩).

(٤) البخاري (٥٧٤١)؛ ومسلم (٢١٩٣).

(٥) الخلال: العود الذي يتخلل به.

(٦) الزهم: الشحم والدمس.

(٧) البراجم: مفاصل الأصابع.

(٨) الاستحداد: حلق العانة.

الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل.

واما الدنيا؛ فإني رأيت جماعة من المهملين أنفسهم يتقدمون إلى السرار^(١)، والغفلة التي أوجبت إهمالهم أنفسهم أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم؛ فإذا أخذوا في مناجاة السر؛ لم يمكن أن أصدف عنهم^(٢)؛ لأنهم يقصدون السر، فألقى الشدائد من ريح أفواهِهم، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمر أصبعه على أسنانه!! ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة، وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل، فيُثْمِر ذلك التفاتها عنه.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إني لأحب أن أترين للمرأة كما أحب أن تتزين لي.

وقد كان النبي ﷺ أنظف الناس وأطيب الناس. وكان لا يفارقهُ السَّوَاكُ.

وكان يكره أن يُشَمَّ منه ريحٌ ليست طيبة.

وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه؛ قلَّ هُمُّه؛ ومن طاب ريحُه؛ زاد عقله.

ثم إنه يُقَرَّبُ من قلوب الخلق، وتحبُّه النفوس؛ لنظافته وطيبه.

وقد كان النبي ﷺ يحبُّ الطَّيِّبَ.

ثم إنه يُؤَنِّسُ الزوجة بتلك الحال؛ فإن النساء شقائق الرجال؛ فكما أنه يكره الشيء

منها؛ فكذلك هي تكرهه، وربما صَبَرَ هو على ما يكره، وهي لا تَصْبِرُ.

وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد، وهم من أقدر الناس، وذلك أنهم ما قومهم

العلم.

ومن تأمل خصائص الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً في العلم والعمل؛ فبه يكون

الاقتداء، وهو الحجة على الخلق.



(١) السرار: المناجاة.

(٢) أصدف عنهم: أعرض عنهم.

حكمة البلاء

ليس في التَّكْلِيفِ أَصْعَبُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْقَضَاءِ، وَلَا فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الرِّضَى بِهِ.
فَأَمَّا الصَّبْرُ؛ فَهُوَ فَرَضٌ، وَأَمَّا الرِّضَى؛ فَهُوَ فَضْلٌ.
وإِنَّمَا صَعِبَ الصَّبْرُ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ يَجْرِي فِي الْأَغْلَبِ بِمَكْرُوهِ النَّفْسِ.
وَلَيْسَ مَكْرُوهُ النَّفْسِ يَقِفُ عَلَى الْمَرَضِ وَالْأَذَى فِي الْبَدَنِ؛ بَلْ هُوَ يَتَنَوَّعُ، حَتَّى
يَتَحَيَّرَ الْعَقْلُ فِي حِكْمَةِ جَرَيَانِ الْقَدَرِ.

فَمَنْ ذَلِكَ أَنْتَ إِذَا رَأَيْتَ مَغْمُورًا بِالدُّنْيَا؛ قَدْ سَأَلْتَ لَهُ أَوْدِيَّتَهَا، حَتَّى لَا يَدْرِي مَا
يَصْنَعُ بِالْمَالِ؛ فَهُوَ يَصُوغُهُ أَوَانِيَّ يَسْتَعْمِلُهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَلُورَ ^(١) وَالْعَقِيقَ ^(٢) وَالشَّيْبَةَ ^(٣)
قَدْ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْهَا صُورَةً؛ غَيْرَ أَنَّ قِلَّةَ مَبَالَاَتِهِ بِالشَّرِيعَةِ، جَعَلَتْ عِنْدَهُ وَجُودَ النَّهْيِ
كَعَدَمِهِ! وَيَلْبَسُ الْحَرِيرَ، وَيَظْلِمُ النَّاسَ، وَالدُّنْيَا مُنْصَبَّةٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَرَى خَلْقًا مِنْ أَهْلِ الدِّينِ
وطلَّابِ الْعِلْمِ؛ مَغْمُورِينَ بِالْفَقْرِ وَالبَلَاءِ، مَقْهُورِينَ تَحْتَ وَلَايَةِ ذَلِكَ الظَّالِمِ؛ فَحِينَئِذٍ يَجِدُ
الشَّيْطَانُ طَرِيقًا لِلْوَسْوَاسِ، وَيَبْتَدِئُ بِالْقَدَحِ فِي حِكْمَةِ الْقَدَرِ؛ فَيَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الصَّبْرِ
عَلَى مَا يَلْقَى مِنَ الضَّرِّ فِي الدُّنْيَا وَعَلَى جَدَالِ إِبْلِيسَ فِي ذَلِكَ.

وكَذَلِكَ فِي تَسْلِيْطِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْفُسَّاقِ عَلَى أَهْلِ الدِّينِ.

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا إِيْلَامُ الْحَيَوَانِ وَتَعْذِيبُ الْأَطْفَالِ.

فَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ يَتِمَحَّصُ الْإِيْمَانُ.

وَمَا يُقَوِّي الصَّبْرَ عَلَى الْحَالَتَيْنِ: النُّقْلَ، وَالْعَقْلَ.

أَمَّا النُّقْلُ؛ فَالْقِرَاءُ وَالسُّنَّةُ.

أَمَّا الْقِرَاءُ؛ فَمِنْ قَسَمٍ إِلَى قَسَمَيْنِ:

* أَحَدُهُمَا: بَيَانُ سَبَبِ إِعْطَاءِ الْكَافِرِ وَالْعَاصِي:

فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّهِمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ

(١) الْبَلُورُ: حَجَرٌ أَبْيَضٌ شَفَافٌ.

(٢) الْعَقِيقُ: حَجَرٌ نَفِيسٌ أَحْمَرٌ يَعْمَلُ مِنْهُ الْفُصُوصُ.

(٣) الشَّيْبَةُ: النَّحَاسُ.

النَّاسُ أُمَّةٌ وَحِدَةٌ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِحَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ ﴿الزخرف: ٣٣﴾، وَإِذْ أَرْزَنَّا أَن تُهْلِكَ قَرْيَةٌ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴿الإسراء: ١٦﴾... وفي القرآن من هذا كثير.

* والقسم الثاني: ابتلاء المؤمن بما يلقي:

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي القرآن من هذا كثير.

وأما السُّنَّةُ؛ فمُنْقَسِمَةٌ إِلَى قَوْلٍ وَحَالٍ:

أما الحال؛ فإنه ﷺ كَانَ يَتَقَلَّبُ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ تَوَثَّرُ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: كَسَرِي وَقِصْرِي فِي الْحَرِيرِ وَالذَّبْيَاجِ! فَقَالَ ﷺ: «أَفِي شَكِّ أَنْتَ يَا عُمَرُ؟! أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟!»^(١).

وأما القول؛ فكقوله عليه الصلاة والسلام: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَسَاوَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»^(٢).

وأما العقل؛ فإنه يَقْوِي عَسَاكِرَ الصَّبْرِ بِجُنُودٍ:

* منها: أَن يَقُولَ: قَدْ ثَبَتَتْ عِنْدِي الْأَدْلَةُ الْقَاطِعَةُ عَلَى حَكْمَةِ الْمَقْدَرِ؛ فَلَا أَتْرُكُ الْأَصْلَ الثَّابِتَ لِمَا يَظُنُّهُ الْجَاهِلُ خَلَلًا.

* ومنها: أَن يَقُولَ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ كَالْأَجِيرِ، وَأَنَّ زَمَنَ التَّكْلِيفِ كِيَاضٍ نَهَارٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْتَعْمَلِ فِي الطِّينِ أَنْ يَلْبَسَ نَظِيفَ الثِّيَابِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَصَابِرَ سَاعَاتِ الْعَمَلِ؛ فَإِذَا فَرَّغَ؛ تَنَظَّفَ وَلَبَسَ أَجُودَ ثِيَابِهِ؛ فَمَنْ تَرَفَّهَ وَقْتَ الْعَمَلِ؛ نَدِمَ وَقْتَ تَفْرِيقِ الْأُجْرَةِ، وَعَوَّقَ عَلَى التَّوَانِي فِيهَا كُلْفًا.

فهذه النَّبَذَةُ تَقْوِي أَرْزَرَ الصَّبْرِ.

○ ○ ○ ○ ○

(١) البخاري (٢٤٦٨)؛ ومسلم (١٤٧٩).

(٢) الترمذي (٢٣٢٠)؛ وابن ماجه (٤١١٠).

جهل بعض المتصوفة

ليس في الوجود شيء أشرف من العلم.
كيف لا وهو الدليل؛ فإذا عُدِمَ؛ وَقَعَ الضلال؟!
وإنَّ من خفيِّ مكائِدِ الشيطانِ أنْ يَزَيِّنَ في نفسِ الإنسانِ التَّعَبُّدَ؛ لِيَسْغَلَهُ عن أَفْضَلِ
التَّعَبُّدِ، وهو العلمُ؛ حتَّى إنه زَيَّنَ لجماعةٍ من القدماءِ أَنهم دفنوا كُتُبَهُم ورمَوْها في البحرِ!
وهذا قد وردَ عن جماعةٍ.

وقد دَنَتْ حيلةُ إبليسَ إلى جماعةٍ من المتصوِّفةِ، حتَّى منعوا من حَمْلِ المحابِرِ تلامذَتِهِم،
وحتَّى قال جعفرُ الخَلْدِيُّ: لو تَرَكَني الصوفيَّةُ؛ جئتُكم بإسنادِ الدُّنيا، كتبتُ مجلساً عن عباسِ
الدُّورِيِّ، فَلَقَيْتَنِي بعضُ الصوفيَّةِ، فقال: دُعِ عِلْمَ الورقِ، وعليكَ بعلمِ الحَرَقِ. ورُئِيتُ محبرةً
مع بعضِ الصوفيَّةِ، فقال له صوفيٌّ آخَرُ: استرْ عورتَكَ! وقد أنشدوا للشَّيْخِ:

إذا طالَبوني بِعِلْمِ الورقِ بَرَزْتُ عليهم بِعِلْمِ الحَرَقِ

وهذا من خفيِّ حيلِ إبليسَ، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبا: ٢٠]، وإنما فعل
وزَيَّنَهُ عندهم لسببين:

* أحدهما: أَنه أَرَادَهُم يمشونَ في الظُّلْمَةِ.

* والثاني: أَنَّ تَصَفُّحَ العلمِ كُلِّ يومٍ يَزِيدُ في العالمِ، ويكشِفُ له ما كان خَفِيَّ عنه، ويقوِّي
إيمانه ومعرفته، ويُريه عيبَ كثيرٍ من مَسالِكِهِ؛ إذا تَصَفَّحَ منهاجَ الرسولِ ﷺ والصحابَةِ.

فأراد إبليسُ سَدَّ تلكِ الطُّرُقِ بِأَخْفَى حيلةٍ، فأظهَرَ أَنَّ المقصودَ العملُ لا العلمُ
لنفسِهِ، وخَفِيَ على المخدوعِ أَنَّ العلمَ عملٌ، وأيُّ عملٍ!

فاحذَرُ من هذه الخديعةِ الخَفِيَّةِ؛ فإنَّ العلمَ هو الأصلُ الأعظمُ والنورُ الأكبرُ.

وكم من مُعْرِضٍ عن العلمِ يَخْوُضُ في عذابٍ من الهوى في تعبُهُ، ويضَيِّعُ كثيراً
من الفرضِ بالنفلِ، ويشتغلُ بما يزعُمُه الأفضَلُ عن الواجِبِ، ولو كانت عنده شُعْلَةٌ من
نورِ العلمِ؛ لا هتدى.

فتأمَّلْ ما ذَكَرْتُ لك؛ تَرشُدْ إن شاء الله تعالى.

نصيحة لأهل الوعظ

تأملت أشياء تجري في مجالس الوعظ، يعتقدها العوامُّ وجُهاُل العلماء قُرْبَةً، وهي منكراً وبُعْدٌ.

وذاك أنَّ المقرئَ يُطْرَبُ ويُخْرِجُ الألحانَ إلى الغناء، والواعظُ ينشدُ بتطريبِ أشعارِ المجنونِ ولىلى، فيصفقُ هذا! ويخْرِقُ ثوبه هذا! ويعتقدون أنَّ ذلك قُرْبَةٌ!!

ومعلومٌ أنَّ هذه الألحانَ كالموسيقى، توجب طرباً للنفس ونشوةً؛ فالتعرُّضُ بها يوجبُ الفسادَ غلطٌ عظيمٌ، وينبغي الاحتسابُ على الوعَّاظِ في هذا.

وكذلك المقابرُيون منهم؛ فإنهم يُهيجونَ الأحزانَ؛ ليكثرَ بكاءُ النساءِ، فيُعْطَوْنَ على ذلك الأجرةَ، ولو أنهم أمروا بالصبر؛ لم تُردِّ النسوةُ ذلك! وهذه أضدادٌ للشرع.

وفي الوعَّاظِ من يتكلَّمُ على طريقِ المعرفةِ والمحبةِ، فترى الحائِكَ والسُّوقيَّ الذي لا يعرفُ فرائضَ تلك الصلاةِ يمزِّقُ أثوابه؛ دعوى لمحبةِ الله تعالى!! والصافي حالاً منهم - وهو أصلحُهم - يتَخَايَلُ بِوُهمِهِ شخصاً هو الخالقُ، فيُبْكِيهِ شوقه إليه لما يَسْمَعُ من عظمتِهِ ورحمتِهِ وجماله.

وليس ما يتخيلونه المعبودَ؛ لأنَّ المعبودَ لا يقعُ في خيالٍ.

وبعد هذا؛ فالتحقيقُ مع العوامِّ صعبٌ، ولا يكادونَ يتفهمونَ بمُرَّ الحقِّ؛ إلَّا أنَّ الواعظَ مأموراً بأن لا يتعدَّى الصوابَ، ولا يتعرَّضَ لما يُفسدُهم، بل يجذبُهم إلى ما يصلحُ بالطفِ وجهه، وهذا يحتاجُ إلى صناعةٍ؛ فإنَّ من العوامِّ من يعجبه حسنُ اللفظِ، ومنهم من يعجبه الإشارةُ، ومنهم من ينفادُ بيتَ من الشعرِ.

واحوجُ الناسِ إلى البلاغةِ الواعظُ؛ ليجمعَ مطالبَهم، لكنه ينبغي أن ينظرَ في اللازمِ الواجبِ، وأن يُعْطِيَهُم من المباحِ في اللفظِ قَدْرَ الملحِ في الطعامِ، ثم يجتذبُهم إلى العزائمِ، ويعرِّفُهم الطريقَ الحقَّ.

وقد كان جماعةٌ من السلفِ يَرَوْنَ تخلیطَ القُصَّاصِ، فينهونَ عن الحضورِ عندهم، وهذا على الإطلاقِ لا يَحْسُنُ اليومَ؛ لأنه كان الناسُ في ذلك الزمانِ متشاغلينَ بالعلم، فأروا حضورَ القُصَّاصِ صادداً لهم، واليومَ كَثُرَ الإعراضُ عن العلم، فأنفعُ ما للعاميِّ مجلسُ

الوعظ، يرذه عن ذنب، ويحرّكه إلى توبة، وإنّا الخلل في القاصّ؛ فليتيّ الله عزّ وجلّ.

○ ○ ○ ○ ○

العشق داء الجامدين

نظرتُ فيما تكلم به الحكماءُ في العشقِ وأسبابِهِ وأدويَّتِهِ، إلّا أنه خطَرَ لي بعد ذلك معنى عجيبٌ أشرّحه ها هنا، وهو أنه لا يتمكّنُ العشقُ إلّا مع واقفٍ جامدٍ، فأما أربابُ صعودِ الهمم؛ فإنها كلّما تخايَلت ما توجبهُ المحبةُ، فلاحَتْ عيوبُهُ لها - إما بالفكرِ فيه أو بالمخالطة -؛ تسَلَّتْ أنفُسُهُم وتعلّقتْ بمطلوبٍ آخر.

فلا يقفُ على درجةِ العشقِ، الموجبِ للتمسُّكِ بتلك الصورة، العاميُّ عن عيوبِها؛ إلّا جامدٌ واقفٌ.

وأما أربابُ الأنفةِ من النقائق؛ فإنهم أبدًا في الترقّي لا يصدّهم صادٌ.

وقد قال ابن مسعود: إذا أعجبتُ أحدكم امرأةً؛ فليتنكّرْ مناتِنها.

وعلى قَدْرِ النظرِ في العواقبِ يخفُ العشقُ عن قلبِ العاشقِ، وعلى قَدْرِ جُهودِ الذّهنِ يقوى القَلْبُ. قال المتنبي:

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُتَنَهَى حُسْنِ الَّذِي يُسَبِّحُ لَمْ يُسَبِّحِ

ومجموعُ ما أردتُ شرحه: أنّ طباعَ المتيقّظين تترقّى فلا تقفُ مع شخصٍ مستحسنٍ، وسببُ ترقّيها: التفكيرُ في نقصِ ذلك الشخصِ وعيوبِهِ، أو في طَلَبِ ما هو أهُمُّ منه، وقلوبُ العارفين تترقّى إلى معروفها، فتعَبُّرُ في مَعْبَرِ الاعتبارِ، فأما أهلُ الغفلةِ؛ فجمودُهُم في الحالتين، وغفلتُهُم عن المقامين؛ يوجبُ أسرَهُم وقَسَرَهُم وخَيْرَتَهُم.

○ ○ ○ ○ ○

في طولِ العمرِ

دعوتُ يومًا فقلتُ: اللهم بَلِّغني آمالي من العلمِ والعملِ، وأطلْ عُمْرِي لأبْلُغَ ما أَحِبُّ من ذلك. فعارضني وسواسٌ من إبليس، فقال: ثم ماذا؟ أليس الموتُ؟ فما الذي ينفعُ طولَ الحياةِ؟!

فقلت له: يا أبله! لو فهمت ما تحت سؤالي؛ علمت أنه ليس بعَبَثٍ. أليس في كل يوم يزيدُ علمي ومعرفتي، فتكثرُ ثمارُ غرسي، فأشكرُ يومَ حَصَادِي؟! أفسرني أنني مُتٌ منذ عشرين سنة؟! لا والله؛ لأنني ما كنتُ أعرفُ اللهَ تعالى عَشْرَ معرفتي به اليوم. وكلُّ ذلك ثمرَةُ الحياة؛ التي فيها اجْتَنَيْتُ أدلةَ الوجدانية، وارتقيتُ عن حَضِيضِ التقليدِ إلى يَفَاعِ البصيرة^(١)، واطَّلَعْتُ على علومٍ زَادَ بها قَدْرِي وَتَجَوَّهَرَتْ بها نفسي، ثم زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتني في إنقاذِ المُبَاضِعِينَ^(٢) من المتعلمين.

وقد قال الله لسيد المرسلين: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزيد المؤمنُ عُمرُهُ إِلَّا خَيْرًا»^(٣).

فيا ليتني قَدَرْتُ على عُمرِ نوح؛ فَإِنَّ العلمَ كثيرٌ، وكلِّما حَصَلَ منه حاصلٌ رَفَعَ وَنَفَعَ.



في أن التقوى أصل السلامة

اعلم أن الزمان لا يَبُتُّ على حالٍ؛ كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ فتارة فقرٌ، وتارة غنى، وتارة عزٌ، وتارة ذُلٌّ، وتارة يفرحُ الموالي، وتارة يشمتُ الأعادي.

فالسعيدُ من لازم أصلاً واحداً على كلِّ حالٍ، وهو تقوى الله عز وجل؛ فإنه إن استغنى؛ زانته، وإن افتقر؛ فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي؛ تمتِ النعمةُ عليه، وإن ابتلي؛ جملته، ولا يضرُّه إن نزل به الزمانُ أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه؛ لأنَّ جميع تلك الأشياء تزول وتغيَّر، والتقوى أصلُ السلامة، حارسٌ لا ينأى، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف على الحدود.

والمُنْكَرُ مَنْ غَرَّتْهُ لَذَّةُ حَصَلَتْ مع عدمِ التَّقوى؛ فإنها سَتَحُولُ وتُخْلِيه خاسراً.

(١) يفاع البصيرة: قمة البصيرة.

(٢) المباضيعين: الذين يخاطرون بأنفسهم.

(٣) مسلم (٢٦٨٢).

فَلَا زِمَ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّكَ لَا تَرَى فِي الضِّيقِ إِلَّا السَّعَةَ، وَفِي الْمَرَضِ إِلَّا
الْعَافِيَةَ؛ هَذَا نَقْدُهَا الْعَاجِلُ، وَالْآجِلُ مَعْلُومٌ.

○ ○ ○ ○ ○

مَقْصُودُ اللَّذَّةِ وَالْهُوَى

لَمَا كَانَ بَدَنُ الْآدَمِيِّ لَا يَقُومُ إِلَّا بِاجْتِلَابِ الْمَصَالِحِ وَدَفْعِ الْمُؤْذِي؛ رُكِّبَ فِيهِ الْهُوَى؛
لِيَكُونَ سَبَبًا لَجَلْبِ الْمَنَافِعِ، وَالْغَضَبُ؛ لِيَكُونَ سَبَبًا لِدَفْعِ الْمُؤْذِي.

وَلَوْلَا الْهُوَى فِي الْمَطْعَمِ؛ مَا تَنَاوَلَ الطَّعَامَ، فَلَمْ يَقُمْ بِدَنُّهُ، فَجُعِلَ لَهُ إِلَيْهِ مِيلٌ
وَتَوَقُّ؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهُ قَدْرُ مَا يُقِيمُ بَدَنَهُ؛ زَالَ التَّوَقُّ.

وكَذَلِكَ فِي الْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ.

وَفَائِدَةُ الْمَنْكَحِ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِبْقَاءُ الْجَنَسِ، وَهُوَ مَعْظَمُ الْمَقْصُودِينَ.

وَالثَّانِي: دَفْعُ الْفَضْلَةِ الْمُحْتَقِنَةِ الْمُؤْذِي احْتِقَانًا.

وَلَوْلَا تَرْكِيبُ الْهُوَى الْمَائِلِ بِصَاحِبِهِ إِلَى النِّكَاحِ؛ مَا طَلَبَهُ أَحَدٌ، فَفَاتَ النَّسْلُ.

فَأَمَّا الْعَارِفُونَ؛ فَإِنَّهُمْ فَهَمُوا الْمَقْصُودَ.

وَأَمَّا الْجَاهِلُونَ؛ فَإِنَّهُمْ مَالُوا مَعَ الشَّهْوَةِ وَالْهُوَى، وَلَمْ يَفْهَمُوا مَقْصُودَ وَضْعِهَا،
فَضَاعَ زَمَانُهُمْ فِيهَا لَا طَائِلَ فِيهِ، وَفَاتَهُمْ مَا خُلِقُوا لِأَجَلِهِ، وَأَخْرَجَهُمْ هَوَاهُمْ إِلَى فُسَادِ الْمَالِ
وَذَهَابِ الْعَرَضِ وَالْدِينِ، ثُمَّ أَذَاهُمْ إِلَى التَّلَافِ.

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مَنْ مَتَنَعَمَ يِبَالُغُ فِي شِرَاءِ الْجَوَارِي لِيَحْرِكَ طَبْعَهُ بِالْمُسْتَجِدِّ؛ فَمَا كَانَ
بِأَسْرَعٍ مِنْ أَنْ وَهَنْتْ قُوَاهُ الْأَصْلِيَّةُ، فَتَعَجَّلَ تَلَفُهُ.

وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مَنْ زَادَ غَضَبُهُ، فَخَرَجَ عَنِ الْحَدِّ، فَفَتَكَ بِنَفْسِهِ وَبِمَنْ يَحِبُّهُ.

فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا خُلِقَتْ إِعَانَةً لِلْبَدَنِ عَلَى قَطْعِ مَرَاكِحِ الدُّنْيَا، وَلَمْ
يُخْلَقْ لِنَفْسِ الْإِلْتِذَازِ، وَإِنَّمَا جُعِلَتِ اللَّذَّةُ فِيهَا كَالْحَلِيلَةِ فِي إِيْصَالِ النِّفْعِ بِهَا؛ إِذْ لَوْ كَانَ
الْمَقْصُودُ التَّنَعُّمُ بِهَا؛ لَمَا جُعِلَتِ الْحَيَوَانَاتُ الْبَهِيمِيَّةُ أَوْ فِي حِطَاءٍ مِنَ الْآدَمِيِّ مِنْهَا.

فَطُوبَى لِمَنْ فَهِمَ حَقَائِقَ الْوَضْعِ، وَلَمْ يَمِيلْ بِهِ الْهُوَى عَنْ فَهْمِ حِكْمِ الْمَخْلُوقَاتِ.

○ ○ ○ ○ ○

في شؤم المعصية وبركة الطاعة

مَنْ تَأَمَّلَ عَوَاقِبَ الْمَعَاصِي؛ رَأَاهَا قَبِيحَةً.
ولقد تَفَكَّرْتُ فِي أَقْوَامٍ أَعْرِفُهُمْ، يُقَرُّونَ بِالزُّنَى وَغَيْرِهِ، فَأَرَى مِنْ تَعَثُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا
مَعَ جَلَادَتِهِمْ مَا لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ أَلْبَسُوا ظُلْمَةً؛ فَالْقُلُوبُ تَنْفَرُ عَنْهُمْ؛ فَإِنْ
اتَّسَعَ لَهُمْ شَيْءٌ؛ فَأَكْثَرُهُ مِنْ مَالِ الْغَيْرِ، وَإِنْ ضَاقَ بِهِمْ أَمْرٌ؛ أَخَذُوا يَتَسَخَّطُونَ عَلَى الْقَدَرِ.
هَذَا وَقَدْ شَغِلُوا بِهَذِهِ الْأَوْسَاحِ عَنْ ذِكْرِ الْآخِرَةِ.
ثُمَّ عَكَسْتُ، فَتَفَكَّرْتُ فِي أَقْوَامٍ صَابَرُوا الْهَوَى، وَتَرَكَوْا مَا لَا يَحِلُّ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ
أَيَّعَتْ لَهُ ثِمَرَاتُ الدُّنْيَا؛ مِنْ قَوِيٍّ مُسْتَلَدٍّ، وَمِهَادٍ مُسْتَطَابٍ، وَعَيْشٍ لَذِيذٍ، وَجَاهٍ عَرِيضٍ؛
فَإِنْ ضَاقَ بِهِمْ أَمْرٌ؛ وَسَّعَهُ الصَّبْرُ، وَطَيَّبَهُ الرِّضَى.
فَفَهَمْتُ بِالْحَالِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].



عشرات الطريق

رَأَيْتُ كُلَّ مَنْ يَعْتَرُّ بِشَيْءٍ أَوْ يَزْلُقُ فِي مَطَرٍ يَلْتَفِتُ إِلَى مَا عَثَرَ بِهِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ طَبْعًا
مَوْضُوعًا فِي الْخَلْقِ؛ إِمَّا لِيَحْذَرَ مِنْهُ إِنْ جَارَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، أَوْ لِيَنْتَظِرَ - مَعَ احْتِرَازِهِ
وَفَهْمِهِ - كَيْفَ فَاتَهُ التَّحَرُّرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا؟! فَأَخَذْتُ مِنْ ذَلِكَ إِشَارَةً، وَقُلْتُ:
يَا مَنْ عَثَرَ مَرَارًا! هَلَّا أَبْصَرْتَ مَا الَّذِي عَثَرَكَ؛ فَاحْتَرَزْتَ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ قَبَّحْتَ
لِنَفْسِكَ مَعَ حَزْمِهَا - تِلْكَ الْوَاقِعَةُ؟! فَإِنَّ الْغَالِبَ مِمَّنْ يَلْتَفِتُ أَنْ مَعْنَى التَّفَاتِيهِ: كَيْفَ عَثَرَ
مِثْلِي - مَعَ احْتِرَازِهِ - بِمِثْلِي مَا أَرَى؟!
فَالْعَجَبُ لَكَ! عَثَرْتُ بِمِثْلِ الذَّنْبِ الْفُلَانِيِّ وَالذَّنْبِ الْفُلَانِيِّ! كَيْفَ غَرَّكَ زُخْرُفُ تَعَلُّمٍ
بِعَقْلِكَ بَاطِنُهُ، وَتَرَى بَعِينَ فِكْرِكَ مَا لَهُ؟! كَيْفَ آثَرْتَ فَانِيًا عَلَى بَاقٍ؟! كَيْفَ بَغَتْ
بُوكْسٍ^(١)؟ كَيْفَ اخْتَرْتَ لَذَّةَ رَفْدَةٍ عَلَى انْتِبَاهٍ مُعَامَلَةٍ؟!

أولك! لقد اشتريت بها بعث أحمال ندم لا يُقْلَهَا ظَهْرٌ، وتنكيس رأس أمسى بعيد
الرفع، ودموع حُزْنٍ على قُبْحِ فعلٍ ما لِمَدِّهَا انقطاع... وأقبح الكل أن يُقال لك:
بماذا؟! ومن أجل ماذا؟! وهذا على ماذا؟!

○○○○○

في أن التقوى تدفع البلاء

تأملت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَا لَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]: قال المفسرون:
﴿هَذَا﴾: رسول الله ﷺ وكتابي. فوجدته على الحقيقة: أن كل من اتَّبَعَ القرآن والسنة،
وعَمِلَ بها فيها؛ فقد سَلِمَ من الضلال بلا شك، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك،
إذا مات على ذلك، وكذلك شقاء الدنيا؛ فلا يَشْقَى أصلاً، وَيُيَسِّرُ هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ
يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

فإن رأيتَه في شدة؛ فله من اليقين بالجزاء ما يُصَيِّرُ الصَّابَ^(١) عنده عسلاً، وإلا
غَلَبَ طيبُ العيش في كل حال.

والغالب أنه لا ينزل به شدة إلا إذا انحرف عن جادة التقوى، فأما الملازم لطريق
التقوى؛ فلا آفة تطرُقه ولا بليَّة تنزل به. هذا هو الأغلب.

فإن نَدَرَ^(٢) من تطرُقه البلاء مع التقوى؛ فذاك في الأغلب لتقدم ذنب يُجَارَى عليه.
فإن قدَرنا عدم الذنب؛ فذاك لإدخال دَهَبٍ صَبْرِهِ كِبَرِ البلاء، حتى يُخْرِجَ تَبْرًا
أحمر؛ فهو يرى عُذوبة العذاب؛ لأنه يشاهد المبتلي في البلاء لا الألم.

○○○○○

(١) الصاب: المر.

(٢) ندر هنا بمعنى: ظهر وبرز.

المؤمن والمعصية

لا ينال لذة المعاصي إلا سكران الغفلة.

فأما المؤمن؛ فإنه لا يلتذ؛ لأنه عند التذاذيه يقف بإزاره عِلْمُ التَّحْرِيمِ وَحَذَرُ الْعُقُوبَةِ.
فإن قويت معرفته؛ رأى بعينِ علمه قربَ الناهي، فيتغنص عيشه في حالِ التذاذيه.
فإن غلبَ سُكْرُ الهوى؛ كان القلبُ متنغصاً بهذه المراقبات، وإن كان الطبعُ في شهوته.

وما هي إلا لحظة، ثم خُذ من غريمِ نَدَمٍ ملازم، وبكاءٍ متواصل، وأسفٍ على ما كانَ مع طولِ الزَّمانِ، حتَّى إنه لو تيقَّنَ العفو؛ وَقَفَ بإزاره حَذَرُ الْعِتَابِ.
فأفٌ للذنوب! ما أقبَحَ آثارها! وما أسوأَ أخبارها!
ولا كانت شهوةٌ لا تُنالُ إلا بمقدارِ قوَّةِ الغفلة.



اياكم ومحقرات الذنوب

كثيرٌ من الناس يتساعون في أمور يظنونها قريبةً وهي تقدحُ في الأصول؛ كاستعارة طلابِ العلمِ جزءاً لا يردُّونه، وقصدِ الدُّخُولِ على من يأكلُ لِيُؤْكَلَ معه، والتسامحِ بعرضِ العدوِّ التذاذاً بذلك، واستصغاراً لمثلِ هذا الذنبِ، وإطلاقِ البصرِ استهانةً بتلك الخطيئة، وفتوى مَنْ لا يَعْلَمُ لثلاثٍ يُقال: هو جاهلٌ... ونحو ذلك مما يظنه صغيراً وهو عظيمٌ.

وأهونُ ما يَصْنَعُ ذلك بصاحبه أن يَحْطِئَهُ من مرتبةِ المتميزين بين الناس، ومن مقامِ رِفْعَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَقِّ.

قال بعضُ السلف: تسامحتُ بَلْقَمَةٍ، فتناولتها، فأنا اليوم من أربعين سنةً إلى خَلْفِ.
فاللهُ الله! اسمعوا مَنْ قد جَرَّبَ! كونوا على مراقبة! وانظروا في العواقب! واعرفوا عَظَمَةَ الناهي! واحذروا من نفخةٍ تُحْتَقَرُ وشررةٌ تُسْتَصَغَرُ؛ فربما أحرقتُ بلدًا!
وهذا الذي أشرتُ إليه؛ يسيرٌ يَدُلُّ على كثير، وأنموذجٌ يُعرِّفُ باقي المحقراتِ من

الدُّنُوبُ.

والعلمُ والمراقبةُ يُعَرِّفَانِكَ ما أَخْلَلْتَ بِذِكْرِهِ، ويعْلَمَانِكَ إن تَلَمَّحْتَ بعين البصيرة
أثرَ شُؤْمِ فعلِهِ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

○ ○ ○ ○ ○

حَقِّقِ التَّوْبَةَ ثُمَّ اسْأَلْ

رَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي عَجَبًا! تَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَتَهَا، وَتَنْسَى جُنَايَاتِهَا!!
فَقُلْتُ: يَا نَفْسَ السَّوْءِ! أَوْمِثْلُكَ يَنْطِقُ؟! فَإِنْ نَطَقَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ الْعَفْوَ
فَحَسَبُ.

فَقَالَتْ: فِيمَنْ أَطْلُبُ مُرَادَاتِي؟!

قُلْتُ: مَا أَمْنُكَ مِنْ طَلَبِ الْمُرَادِ، إِنَّمَا أَقُولُ: حَقَّقِي التَّوْبَةَ وَانْطِقِي؛ كَمَا نَقُولُ فِي
الْعَاصِي بِسَفَرِهِ إِذَا اضْطَرَّ إِلَى الْمَيِّتَةِ: لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ. فَإِنْ قِيلَ لَنَا: أَفَيَمُوتُ؟! قُلْنَا:
لَا؛ بَلْ يَتُوبُ وَيَأْكُلُ.

فَاللَّهُ اللَّهُ مِنْ جَرَاءٍ عَلَى طَلَبِ الْأَغْرَاضِ مَعَ نَسْيَانِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الدُّنُوبِ الَّتِي
تَوْجِبُ تَنْكِيسَ الرَّأْسِ، وَلِئِنْ تَشَاغَلْتَ بِإِصْلَاحِ مَا مَضَى وَالنَّدَمِ عَلَيْهِ؛ جَاءَتْكَ مُرَادَاتُكَ.
ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ سُؤَالَاتِكَ! فَإِنَّكَ لَا تَكَادُ تَسْأَلُ مَهْمًا مِنَ الدُّنْيَا، بَلْ فَضُولَ الْعَيْشِ،
وَلَا تَسْأَلُ صَلَاحَ الْقَلْبِ وَالذِّينِ مِثْلَ مَا تَسْأَلُ صَلَاحَ الدُّنْيَا.

فَاعْقِلْ أَمْرَكَ؛ فَإِنَّكَ مِنَ الْإِنْبَسَاطِ وَالْغَفْلَةِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ^(١)، وَلَيَكُنْ حُزْنُكَ عَلَى
زَلَّاتِكَ شَاغِلًا لَكَ عَنْ مُرَادَاتِكَ؛ فَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ شَدِيدَ الْخَوْفِ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ فِي
ذَلِكَ؟ قَالَ: وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ أَطْلَعَ عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِي فَقَالَ: اذْهَبْ؛ لَا غَفْرَتُ لَكَ؟!

○ ○ ○ ○ ○

(١) الْجُرْفُ: شِقُّ الْوَادِي إِذَا حَفَرَ الْمَاءُ فِي أَسْفَلِهِ.

المؤمن بين البلاء والرخاء

من عاش مع الله - عز وجل - طيب النفس في زمن السلامة؛ خفت عليه زمن البلاء؛ فهناك المحك.

إنَّ المَلِكَ عزَّ وجلَّ يَنَّا يَنِي نَقْصَ وَيَنَّا يُعْطِي سَلَبَ؛ فَطِيبُ النَّفْسِ وَالرَّضَى هُنَاكَ يَبِينُ.
فَأَمَّا مَنْ تَوَاصَلَتْ لَدَيْهِ النِّعَمُ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ طِيبَ الْقَلْبِ لِتَوَاصُلِهَا؛ فَإِذَا مَسَّتْهُ نَفْحَةٌ
مِنَ الْبَلَاءِ؛ فَبَعِيدٌ ثَبَاتُهُ.

قال الحسن البصري: كانوا يتساوون في وقت النعم؛ فإذا نزل البلاء؛ تباينوا.
فالعاقل من أعدَّ ذُخْرًا، وَحَصَّلَ زَادًا، وازداد من العُدَّة؛ للقاء حَرْبِ الْبَلَاءِ..
وَلَا بَدَّ مِنْ لِقَاءِ الْبَلَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِنْدَ صَرْعَةِ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّهَا إِنْ نَزَلَتْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -
فَلَمْ تَجِدْ مَعْرِفَةً تَوْجِبُ الرِّضَى أَوْ الصَّبْرَ؛ أَخْرَجَتْ إِلَى الْكُفْرِ.
وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ فِيهِ كَثْرَةَ الْخَيْرِ وَهُوَ يَقُولُ فِي لَيَالِي مَوْتِهِ: رَبِّي هُوَ
ذَا يَظْلِمُنِي! فَلَمْ أَزَلْ مُتَرَجِّجًا مَهْمًا بِتَحْصِيلِ عُدَّةٍ أَلْقَى بِهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ.
كَيْفَ؛ وَقَدْ رَوَيْ أَنِ الشَّيْطَانَ يَقُولُ لِأَعْوَانِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ: عَلَيْكُمْ هَذَا؛ فَإِنْ
فَاتَكُم؛ فَلَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِ؟!

وَأَيُّ قَلْبٍ يَثْبُتُ عِنْدَ إِمْسَاكِ النَّفْسِ، وَالْأَخْذِ بِالْكَظْمِ^(١)، وَنَزْعِ النَّفْسِ، وَالْعِلْمِ
بِمَفَارِقَةِ الْمَحَبَّاتِ إِلَى مَا لَا يَذَرِي مَا هُوَ، وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ إِلَّا الْقَبْرَ وَالْبَلَاءَ.
فَنَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقِينًا يَقِينًا شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

○ ○ ○ ○ ○

(١) الكظم: مخرج النفس.

في شرف الصبر عن المعاصي

بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى؛ لا تبغ عزها بذل المعاصي! وصابر عطش
الهوى في هجير المشتبه وإن أمض^(١) وأرمض^(٢)، تالله لولا صبر عمر؛ ما انبسطت يده
بضرب الأرض بالدرّة.

بالله عليك؛ تدوّق حلاوة الكفّ عن المنهي؛ فإنها شجرة تُثمر عزّ الدنيا وشرف
الآخرة.

ومتى اشتدّ عطشك إلى ما تهوى؛ فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الرّيّ الكامل.
بالله عليك؛ تفكّر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة، ثم عرّضت له فتنة في
الوقت الأخير، كيف نطح مركبة الجرف فغرق وقت الصعود!
قل لي: من أنت؟ وما عملك؟ وإلى أيّ مقام ارتفع قدرك؟ يا من لا يصبر لحظة
عما يشتهي!

بالله عليك؛ اتدري من الرجل؟ الرجل - والله - من إذا خلا بها يحب من المحرم،
وقدر عليه، وتقلقل عطشاً إليه؛ نظر إلى نظر الحقّ إليه، فاستحى من إجاله همّه فيما
يكرهه، فذهب العطش.

كأنك لا تترك لنا إلا ما لا تشتهي، أو ما لا تصدق الشهوة فيه، أو ما لا تقدّر عليه!!
كذا والله عادتُك! إذا تصدّقت؛ أعطيت كسرة لا تصلح لك، أو في جماعة يمدحونك.
هيهات! والله؛ لا نلت ولا يتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة، تبدّل أطايبك،
وتترك مشتبهاتك، وتصبر على مكروهااتك؛ علماً منك - إن كنت معاملاً - بأنك أجير
وما غربت الشمس.

فإن كنت عبداً؛ رأيت ذلك قليلاً في جنب رضى حبيبك عنك.



(١) أمض: ألم.

(٢) أرمض: أحرق.

في حفظ الوقت

رَأَيْتُ عُمُومَ الْخَلَائِقِ يَذْفَعُونَ الزَّمانَ دَفْعًا عَجِيبًا: إِنَّ طَالَ اللَّيْلُ؛ فَبَحْدِيثٍ لَا يَنْفَعُ،
أَوْ بَقْرَاءَةٍ كِتَابٍ فِيهِ غَزَاةٌ وَسَمَرٌ! وَإِنْ طَالَ النَّهَارُ؛ فَبالنَّوْمِ! وَهُمْ فِي أَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَى دِجْلَةٍ
أَوْ فِي الْأَسْوَاقِ! فَشَبَّهْتُهُمُ بِالْمُتَحَدِّثِينَ فِي سَفِينَةٍ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، وَمَا عِنْدَهُمْ خَبْرٌ!
وَرَأَيْتُ النَّادِرِينَ قَدْ فَهَمُوا مَعْنَى الْوُجُودِ؛ فَهُمْ فِي تَعَبَةِ الزَّادِ وَالتَّأَهُبِ لِلرَّحِيلِ؛
إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ، وَسَبَبُ تَفَاوُتِهِمْ قَلَّةُ الْعِلْمِ وَكَثْرَتُهُ بِمَا يَنْفَقُ^(١) فِي بِلَدِ الْإِقَامَةِ^(٢).
فَالْمُتَيْقِظُونَ مِنْهُمْ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْأَخْبَارِ بِالتَّافِقِ هُنَاكَ، فَيَسْتَكْثِرُونَ مِنْهُ، فَيَزِيدُ رَبُّهُمْ.
وَالْغَافِلُونَ مِنْهُمْ يَحْمِلُونَ مَا اتَّفَقَ، وَرَبِّمَا خَرَجُوا لَا مَعَ خَفِيرٍ؛ فَكَمْ مَنْ قَدْ قُطِعَتْ
عَلَيْهِ الطَّرِيقُ فَبَقِيَ مَفْلِسًا!

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي مَوَاسِمِ الْعُمُرِ! وَالبَدَارَ البَدَارَ قَبْلَ الْقَوَاتِ! وَاسْتَشْهَدُوا الْعِلْمَ،
وَاسْتَدِلُّوا الْحِكْمَةَ، وَنَافِسُوا الزَّمانَ، وَنَاقِشُوا النُّفُوسَ، وَاسْتَظْهِرُوا بِالزَّادِ؛ فَكَأَنَّ قَدْ حَدَا
الْحَادِي فَلَمْ يُفْهِمْ صَوْتَهُ مِنْ وَقَعِ دَمْعِ النَّدَمِ.



لا تَأْمَنْ مَكْرَ اللَّهِ

سَبْحَانَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، الَّذِي مَنْ عَرَفَهُ خَافَهُ، وَمَا أَمِنَ مَكْرَهُ قَطُّ مَنْ عَرَفَهُ.
لَقَدْ تَأَمَّلْتُ أَمْرًا عَظِيمًا: أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْهَلُ حَتَّى كَأَنَّهُ يُنْهَلُ، فَتَرَى أَيْدِيَ الْعَصَاةِ
مُطْلَقَةً كَأَنَّهُ لَا مَانِعَ؛ فَإِذَا زَادَ الْإِنْبِسَاطُ وَلَمْ تَرَعَوْ^(٣) الْعُقُولُ؛ أَخَذَ أَخَذَ جَبَّارٍ.
وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِمْهَالُ لِيَبْلُغَ الصَّابِرَ وَلِيُثْمِلِيَ فِي الْإِمْهَالِ لِلظَّالِمِ، فَيُجِبَّتَ هَذَا
عَلَى صَبْرِهِ، وَيُخْزِيَ هَذَا بِقُبْحِ فِعْلِهِ.



(١) يَنْفَقُ: يَرْجُ.

(٢) بِلَدِ الْإِقَامَةِ: الدَّارُ الْآخِرَةُ.

(٣) تَرَعَوْ: تَنْزَجِرُ وَتَتَعَطَّ.

كفى بالموت واعظاً

من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته؛ فإنه ينتبه انتباهاً لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يحُدُّ، ويتلهَّف على زمانه الماضي، ويودُّ لو ترك يتدارك ما فاتته ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف.

ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية؛ حصل كل مقصود من العمل بالتقوى.

فالعاقِل من مثَل تلك الساعة، وعَمِلَ بمقتضى ذلك.

فإن لم يتهياً تصوير ذلك على حقيقته؛ تخايله على قدر يقظته؛ فإنه يكف كُفَّ الهوى ويبعث على الجد.

فأما من كانت تلك الساعة نُصِبَ عينيه؛ كان كالأسير لها.

كما روي عن حبيب العجمي: أنه كان إذا أصبح؛ يقول لامرأته: إذا مُت اليوم؛ ففلان يغسلني، وفلان يحملني.

وقال معروف لرجل: صل بنا الظهر! فقال: إن صليت بكم الظهر؛ لم أصل بكم العصر. فقال: وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر! نعوذ بالله من طول الأمل.

ودَكَرَ رجلٌ رجلاً بين يديه بغية، فجعل معروف يقول له: اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك!



في اتقاء الشبهات

أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص، فكنْتُ كلما حصل شيء منه؛ فاتني من قلبي شيء، وكلما استنارت لي طريق التحصيل؛ تجدد في قلبي ظلمة.

فقلت: يا نفس السوء! الإثم حوار القلوب^(١)، وقد قال ﷺ: «استفت قلبك»^(٢)؛ فلا خير في الدنيا كلها إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدر، وإن الجنة لو

(١) حوار القلوب: مآلها.

(٢) أحمد (١٧٥٤٠).

حَصَلْتُ بِسَبَبٍ يَقْدَحُ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الْمَعَامِلَةِ؛ مَا لَدْتُ! وَالنُّومُ عَلَى الْمَزَابِلِ مَعَ سَلَامَةٍ
الْقَلْبِ مِنَ الْكَدْرِ أَلَدُّ مِنْ تَكْنِثَاتِ الْمُلُوكِ.

وَمَا زِلْتُ أَغْلِبُ نَفْسِي تَارَةً وَتَغْلِبُنِي أُخْرَى، ثُمَّ تَدْعِي الْحَاجَةَ إِلَى تَحْصِيلِ مَا لَا بَدَّ
لَهَا مِنْهُ، وَتَقُولُ: فَمَا أَتَعَدَّى فِي الْكَسْبِ الْمُبَاحِ فِي الظَّاهِرِ! فَقُلْتُ لَهَا: أَوْ لَيْسَ الْوَرَعُ يَمْنَعُ
مِنْ هَذَا؟ قَالَتْ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَيْسَتِ الْقِسْوَةُ فِي الْقَلْبِ مُحْصَلٌ بِهِ؟ قَالَتْ: بَلَى. قُلْتُ: فَلَا
خَيْرَ لَكَ فِي شَيْءٍ هَذَا ثَمَرَتُهُ!

فَخَلَوْتُ يَوْمًا بِنَفْسِي، فَقُلْتُ لَهَا:

وَيْحُكَ! ااسْمَعِي أَحَدَثُكَ! إِنْ جَمَعْتَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا مِنْ وَجْهِ فِيهِ شُبْهَةٌ؛ أَفَأَنْتِ عَلَى
يَقِينٍ مِنْ إِنْفَاقِهِ؟ قَالَتْ: لَا. قُلْتُ: فَالْمَحَنَةُ أَنْ يَخْطِئَ بِهِ الْغَيْرُ، وَلَا تَنَالِينَ إِلَّا الْكَدَرَ
الْعَاجِلَ وَالْوِزَرَ الَّذِي لَا يُؤْمَنُ.

وَيْحُكَ! ااتركي هذا الذي يَمْنَعُ مِنْهُ الْوَرَعُ لِأَجْلِ اللَّهِ فَعَامِلِيهِ بِتَرْكِهِ.. وَكَأَنَّكَ لَا
تُرِيدِينَ إِلَّا تَتْرَكِي إِلَّا مَا هُوَ مُحَرَّمٌ فَقَطْ أَوْ مَا لَا يَصِحُّ وَجْهُهُ؟

أَوْ مَا سَمِعْتَ أَنْ: «مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ؛ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ»^(١)؟!

أَمَّا لَكَ عِبْرَةٌ فِي أَقْوَامٍ جَمَعُوا فَحَازَهُ سِوَاهُمْ، وَأَمَلُوا فَمَا بَلَغُوا مُنَاهُمْ؟! كَمْ مِنْ عَالَمٍ
جَمَعَ كُتُبًا كَثِيرَةً مَا انْتَفَعَ بِهَا! وَكَمْ مِنْ مُنْتَفِعٍ مَا عِنْدَهُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ! وَكَمْ مِنْ طَيِّبِ الْعَيْشِ
لَا يَمْلِكُ دِينَارَيْنِ! وَكَمْ مِنْ ذِي قَنَاطِيرٍ مَنْغَصٍ!

أَمَّا لَكَ فِطْنَةٌ تَتَلَمَّحُ أَحْوَالَ مَنْ يَتَرَخَّصُ مِنْ وَجْهِ فَيُسَلَّبُ مِنْهُ مِنْ أَوْجِهِ؟! رَبِّهَا
نَزَلَ الْمَرَضُ بِصَاحِبِ الدَّارِ، أَوْ بِيَعُضٍ مِّنْ فِيهَا، فَأَنْفَقَ فِي سِنَّتِهِ أَضْعَافَ مَا تَرَخَّصَ فِي
كَسْبِهِ، وَالتَّقْيِ مَعَاقِي.



لابد من العمل والكسب

اجتهادُ العاقل فيما يُصلِحُه لازمٌ له بمقتضى العقل والشرع.
فمن ذلك حفظُ ماله، وطلبُ تنميته، والرغبةُ في زيادته؛ لأن سببَ بقاءِ الإنسانِ ماله.

فقد نُهي عن التبذير فيه: ف قيل له: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾؛ فأعلم أنه سببُ لبائته: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥] أي: قوامًا لمعاشكم. قال عز وجل: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن فضيلة المال: أن الله تعالى قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الفتح: ١٠].

وجعل المالَ نعمةً، وزكاته تطهيرًا: فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقال ﷺ: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١)، وقال: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ»^(٢).

وكان أبو بكر ﷺ يخرجُ إلى التجارة ويتركُ رسولَ الله ﷺ؛ فلا ينهأ عن ذلك.
وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «لأنَّ أُمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْنِ جَبَلٍ أَطْلُبُ كِفَافَ وَجْهِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُمُوتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون: ومن سادات التابعين سعيدُ ابنُ المسيب؛ مات وخلفَ مالا... وما زال السلفُ على هذا.
ثم قد تعرَّضَ نوابُ - كالمرض - يُحتاجُ فيها إلى شيءٍ من المال، فلا يجدُ الإنسانُ بداً من الاحتياجِ في طلبه، فيبذلُ عِرْضَه أو دينه.

ثم للنفسِ قوةٌ بدنيةٌ عند وجودِ المال، وهو معدودٌ عند الأطباءِ من الأدوية؛

(١) أحمد (١٧٣٠٩).

(٢) سبق تخريجه.

حِكْمَةً وَصَّعَهَا الْوَاضِعُ.

ثم نَبَعَ اقْوَامٌ، طَلَبُوا طَرِيقَ الرَّاحَةِ، فَادَّعَوْا أَنَّهُمْ مُتَوَكِّلَةٌ، وَقَالُوا: نَحْنُ لَا نُمْسِكُ شَيْئًا، وَلَا نَتَزَوَّدُ لِسَفَرٍ، وَرِزْقُ الْأَبْدَانِ يَأْتِي!

وهذا على مضادة الشرع: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ ^(١)، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَافَرَ فِي طَلَبِ الْخَضِرِ تَزَوَّدَ ^(٢)، وَنَبِيُّنَا ﷺ لَمَّا هَاجَرَ تَزَوَّدَ، وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم يدَّعي هؤلاء المتصوفة بُغْضَ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَفْهَمُونَ مَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُبْغَضَ. وَفِي الْجُمْلَةِ؛ إِنَّمَا اخْتَرَعُوا بَارِئَهُمْ طَرِيقًا: فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ إِذَا صَدَقُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الْبَهْرَجَةِ إِذَا نَصَبُوا شَبَاكَ الصَّيْدِ بِالتَّزَهُدِ! فَسَمَّوْا مَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ فُتُوحًا!! وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَذُمُّ الدُّنْيَا وَهُوَ يَأْكُلُ فَيَشْبَعُ وَلَا يَنْظُرُ مِنْ أَيْنَ الْمَطْعَمُ! وَمَا زَالَ صَالِحُو السَّلَفِ يَفْتَشُونَ عَنِ الْمَطْعَمِ: حَتَّى كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ يَسْهَرُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَيَقُولُونَ: مَعَ مَنْ نَعْمَلُ غَدًا. وَكَانَ سَرِي السَّقَطِيِّ يُعْرِفُ بِطَيْبِ الْغَدَاءِ، وَلَهُ فِي الْوَرَعِ مَقَامَاتٌ.

فَجَاءَ قَوْمٌ يَتَسَمَّوْنَ بِالصُّوفِيَّةِ، يَدَّعُونَ اتِّبَاعَ أَوْلَئِكَ السَّادَةِ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ مَالِ فُلَانٍ وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَصُولَ تِلْكَ الْأَمْوَالِ، وَيَقُولُونَ: رُزِقْنَا!

○○○○○

تأملات

عَرَضَ لِي فِي طَرِيقِ الْحِجِّ خَوْفٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَسِرْنَا عَلَى طَرِيقِ خَيْبَرَ، فَرَأَيْتُ مِنَ الْجِبَالِ الْهَائِلَةِ وَالطُّرُقِ الْعَجِيبَةِ مَا أَذْهَلَنِي، وَزَادَتْ عَظَمَةُ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صَدْرِي، فَصَارَ يَعْزُضُ لِي عِنْدَ ذِكْرِ تِلْكَ الطُّرُقِ نَوْعٌ تَعْظِيمٍ لَا أَجِدُهُ عِنْدَ ذِكْرِ غَيْرِهَا. فَصَحْتُ بِالنَّفْسِ: وَيَحْكُ! اعْبُرِي إِلَى الْبَحْرِ، وَانْظُرِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَجَائِبِهِ بَعَيْنِ الْفِكْرِ؛

(١) البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (١٣١٤).

(٢) يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، كما في حديث الهجرة الذي رواه البخاري (٣٩٠٥).

تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه.

ثم اخرجني إلى الكون والتفتي إليه؛ فَإِنَّكَ تَرَيْنَهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَفْلَاقِ كَذَرَّةٍ فِي فَلَاةٍ.

ثم جُولِي فِي الْأَفْلَاقِ، وَطُوفِي حَوْلَ الْعَرْشِ، وَتَلَمَّحِي مَا فِي الْجَنَانِ وَالنِّيرَانِ.

ثم اخرجني عن الكُلِّ، والتفتي إليه؛ فَإِنَّكَ تَشَاهِدِينَ الْعَالَمَ فِي قَبْضَةِ الْقَادِرِ الَّذِي لَا تَقِفُ قُدْرَتُهُ عِنْدَ حَدٍّ.

ثم التفتي إليك، فتلمحي بدايتك ونهايتك، وتفكرِي فيما قَبْلَ الْبَدَايَةِ، وَلَيْسَ إِلَّا الْعَدَمُ، وَفِيهَا بَعْدُ الْبَلَى، وَلَيْسَ إِلَّا التَّرَابُ.

فَكَيْفَ يَأْتِسُ بِهَذَا الْوُجُودِ مَنْ نَظَرَ بَعِينَ فِكْرِهِ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى؟!

وَكَيْفَ يَفْعَلُ أَرْيَابُ الْقُلُوبِ عَنْ ذِكْرِ هَذَا إِلَهِ الْعَظِيمِ؟!

بِاللَّهِ؛ لَوْ صَحَّتِ النُّفُوسُ عَنْ سُكْرِ هَوَاهَا؛ لَذَابَتْ مِنْ خَوْفِهِ، أَوْ لَغَابَتْ فِي حُبِّهِ؛ غَيْرَ أَنَّ الْحَسَّ غَلَبَ، فَعَظُمَتْ قُدْرَةُ الْخَالِقِ عِنْدَ رُؤْيَا جَبَلٍ، وَإِنَّ الْفِطْنَةَ لَو تَلَمَّحَتْ الْمَعَايِي؛ لَكُنَتْ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ أَوْفَى مِنْ دَلِيلِ الْجَبَلِ.

سُبْحَانَ مَنْ شَغَلَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ بِمَا هُمْ فِيهِ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ! سُبْحَانَهُ!



لِلْبَلَاءِ نَهَايَةٌ

لِلْبَلَاءِ نَهَايَاتٌ مَعْلُومَةٌ الْوَقْتِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَلَا بَدَّ لِلْمُبْتَكَى مِنَ الصَّبْرِ إِلَى أَنْ يَنْقَضِيَ أَوَانُ الْبَلَاءِ؛ فَإِنْ تَقَلَّقَ قَبْلَ الْوَقْتِ؛ لَمْ يَنْفَعِ التَّقَلُّقُ؛ فَاسْتَعْجَلْ زَوَالِ الْبَلَاءِ مَعَ تَقْدِيرِ مَدَّتِهِ لَا يَنْفَعُ.

فَالْوَاجِبُ الصَّبْرُ، وَإِنْ كَانَ الدُّعَاءُ مَشْرُوعًا، وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا بِهِ.

إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلدَّاعِي أَنْ يَسْتَعْجَلَ، بَلْ يَتَعَبَّدُ بِالصَّبْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى الْحَكِيمِ، وَيَقْطَعُ الْمَوَادَّ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِلْبَلَاءِ؛ فَإِنَّ غَالِبَ الْبَلَاءِ أَنْ يَكُونَ عُقُوبَةً.

فَامَا الْمُسْتَعْجَلُ، فَمَزَاحِمٌ لِلْمَدْبُرِ، وَلَيْسَ هَذَا مَقَامَ الْعِبَادَةِ، وَإِنَّمَا الْمَقَامُ الْأَعْلَى هُوَ

الرَّضَى.

والصبرُ هو اللازمُ، والتَّلافي بكثرة الدعاءِ نِعَمَ المعتمد، والاعتراضُ حرامٌ، والاستعجالُ مزاحمةٌ للتدبير.
فافهم هذه الأشياء؛ فإنَّها تُهَوِّنُ البلاءَ.

○○○○○

لا تستعجل إجابة الدعاء

ينبغي لمن وَقَعَ في شِدَّةٍ ثم دعا أن لا يُخْتَلَجَ في قلبه أمرٌ من تأخير الإجابة أو عدمها؛ لأن الذي عليه أن يدعُو، والمدعُو مالِكٌ حَكِيمٌ؛ فإن لم يُجِبْ؛ فَعَلَّ ما يشاء في مُلكِهِ، وإن أُخِّرَ؛ فَعَلَّ بمقتضى حِكْمَتِهِ؛ فالمعتَرِضُ عليه في سرِّه خارجٌ عن صِفَةِ عبيد، مزاحمٌ لمرتبةٍ مستحقٍّ!

ثم ليَعْلَمْ أن اختيارَ الله عزَّ وجلَّ له خيرٌ من اختيارِهِ لنفسِهِ.

فربَّما سألَ سَيِّلاً سالَ به^(١)

فإذا سَلَّمَ العبدُ تحكيماً لحُكْمَتِهِ وحُكْمِهِ، وأيقنَ أنَّ الكُلَّ مُلْكُهُ؛ طابَ قلبُهُ؛ قُضِيَتْ حاجتُهُ أو لم تُقَضَّ.

وفي الحديث: «ما مِنْ مسلمٍ دعا الله تعالى إلَّا أجابَهُ: فَإِما أَنْ يُعَجَّلَها، وإِما أَنْ يُؤَخَّرَها، وإِما أَنْ يَدَّخِرَها له في الآخرة»^(٢).

فإذا رأى يومَ القيامةِ أنَّ ما أُجيبَ فيه قد ذَهَبَ، وما لم يُجِبْ فيه قد بَقِيَ ثوابُهُ؛ قال: لَيْتَكَ لم تُجِبْ لي دعوةً قَطُّ.

فافهم هذه الأشياء! وسَلِّمْ قَلْبَكَ من أن يُخْتَلَجَ فيه رَيْبٌ أو استعجالٌ.

○○○○○

(١) أي ربِّما سأل شيئاً أضرَّ به وأغرقه.

(٢) أحد (٩٤٩٣).

في علو الهمة

مَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ الصَّافِي؛ دَلَّهَ عَلَى طَلَبِ أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ، وَنَهَاهُ عَنِ الرِّضَى بِالنَّقْصِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَقَدْ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنْبِّي:

وَلَمْ أَرْ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّامِ
فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّهِيَ إِلَى غَايَةِ مَا يُمْكِنُهُ: فَلَوْ كَانَ يُتَصَوَّرُ لِلْآدَمِيِّ صَعُودُ
السَّمَاوَاتِ؛ لَرَأَيْتُ مِنْ أَقْبَحِ النَّقَائِصِ رِضَاهُ بِالْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَتْ النُّبُوَّةُ تُحْصَلُ بِالْاجْتِهَادِ؛
رَأَيْتُ الْمُقْصِرَ فِي تَحْصِيلِهَا فِي حَضِيضٍ؛ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ ذَلِكَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ الْمُمْكِنَ،
وَالسَّيْرَةَ الْجَمِيلَةَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ: خُرُوجَ النَّفْسِ إِلَى غَايَةِ كِمَالِهَا الْمُمْكِنِ لَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.
وَأَنَا أَشْرَحُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ مَذْكُورُهُ عَلَى مُغْفَلِهِ:

أَمَّا فِي الْبَدَنِ؛ فَلَيْسَتْ الصُّورَةُ دَاخِلَةً تَحْتَ كَسْبِ الْآدَمِيِّ، بَلْ يَدْخُلُ تَحْتَ كَسْبِهِ
تَحْسِينُهَا وَتَزِينُهَا؛ فَقَبِيحٌ بِالْعَاقِلِ إِهْمَالُ نَفْسِهِ.

وَقَدْ نَبَّهَ الشَّرْعُ عَلَى الْكُلِّ بِالْبَعْضِ؛ فَأَمَرَ بِقَصِّ الْأَظْفَارِ، وَتَنْفِ الْإِبْطِ، وَحَلْقِ
الْعَانَةِ، وَنَهَى عَنْ أَكْلِ الثُّومِ وَالْبَصَلِ النَّيِّءِ؛ لِأَجْلِ الرَّائِحَةِ.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقِيسَ عَلَى ذَلِكَ وَيَطْلُبَ غَايَةَ النِّظَافَةِ وَنَهَايَةَ الزَّيْنَةِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرِفُ مَجِيئَهُ بِرِيحِ الطَّيِّبِ، فَكَانَ الْغَايَةَ فِي النِّظَافَةِ وَالزَّاهَةِ.
وَلَسْتُ أَمُرُ بِزِيَادَةِ التَّقَشُّفِ الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ الْمُؤَسَّسُونَ، وَلَكِنَّ التَّوَسُّطَ هُوَ الْمَحْمُودُ.
ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفُقَ بِيَدَيْهِ الَّذِي هُوَ رَاحِلَتُهُ، وَلَا يَنْقُصَ مِنْ قُوَّتِهَا، فَتَنْقُصَ قُوَّتُهَا.
وَلَسْتُ أَمُرُ بِالسَّيِّعِ الَّذِي يُوْجِبُ الْجُشَاءَ، إِنَّمَا أَمُرُ بِالتَّوَسُّطِ؛ فَإِنَّ قُوَّةَ الْآدَمِيِّ
كَعَيْنٍ جَارِيَةٍ؛ كَمْ فِيهَا مِنْ مَنْفَعَةٍ لِصَاحِبِهَا وَلِغَيْرِهِ.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي التَّجَارَةِ وَالْكَسْبِ؛ لِيُفْضَلَ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَا يُفْضَلَ غَيْرُهُ
عَلَيْهِ، وَلِيَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ لَا تَمْنَعُهُ عَنِ الْعِلْمِ.

ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ الْغَايَةَ فِي الْعِلْمِ، وَمَنْ أَقْبَحُ النَّقْصِ التَّقْلِيدُ؛ ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ
يَطْلُبَ الْغَايَةَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُعَامَلَتِهِ.

وفي الجملة؛ لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها؛ فإن القنوع^(١) حالة الأراذل.
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
ولو كانت أمكنك عبور كل أحد من العلماء والزهاد؛ فافعل؛ فإنهم كانوا رجالاً
وأنت رجل، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها.
واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تذهب.
ولا تخلد إلى كسل؛ فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد
والعزم، وإن الهمة لتغلي في القلوب عليان ما في القدر.
وقد قال بعض من سلف:

ليس لي مال سوى كرمي فبه أحيأ من العدم
قنعت نفسي بما رزقت وتمطت في العلا همي

○○○○○

من عجائب البشر

رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة
ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا؛ ويتجهدون بالليل، ويؤخرون
الفريضة عن الوقت في أشياء يطول عددها؛ من حفظ فروع وتضييع أصول.
فبحث عن سبب ذلك؟ فوجدته من شيئين:
أحدهما: العادة.

والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب؛ فإنه قد يغلب؛ فلا يترك سمعاً ولا
بصراً.

ومن هذا القبيل: أن إخوة يوسف قالوا - حين سمعوا صوت المُنَادِي: ﴿إِنَّكُمْ
لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] -: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]،
فجاء في التفسير: أنهم لما دخلوا مصر؛ كمموا أفواه إبلهم؛ لثلاث تناول ما ليس لهم، فكأنهم
قالوا: قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا؛ فكيف نسرق؟! ونسوا هم تفاوت ما بين الورع من

(١) القنوع: الرضى باليسير من الفضائل.

اختطافِ أكلةٍ لا يملكونها وبينَ إلقاءِ يوسفَ عليه السلامَ في الحبِّ وبيعِهِ بثمنٍ بخسٍ!!
وفي الناس من يُطيعُ في صغارِ الأمورِ دونَ كبارِها، وفيما كُلَّفَتْهُ عليه خفيفةٌ أو
معتادةٌ، وفيما لا يَنْقُصُ شيئاً من عادتهِ في مَطْعَمٍ ومَلْبَسٍ.
حتَّى إِنِّي رأيتُ رجلاً من أهلِ الخيرِ والتَّعبُدِ، أعطاهُ رجلٌ مالاً لينيّ به مسجداً،
فأخذه لنفسِهِ، وأنفقَ عَوَضَ الصحيحِ قُرَاضَةً^(١)، فلما احتَضَرَ؛ قال لذلك الرجلِ:
اجعلني في حِلٍّ؛ فَإني فعلتُ كذا وكذا!
ونرى أقواماً يَتْرُكُونَ الذُّنُوبَ لبعدهم عنها؛ فقد أَلْفَوْا التَّركَ، وإذا قَرَّبُوا منها؛ لم
يتألَّكُوا. وفي الناس من هذه الفنونِ عجائبٌ يطولُ ذِكْرُها.
وقد عَلِمْنَا أن خَلْقاً من علماءِ اليهودِ كانوا يَحْمِلُونَ ثِقَلَ التَّعبُدِ في دينِهِم، فلما جاء
الإسلامُ، وعَرَفُوا صحَّتَهُ؛ لم يُطيقُوا مقاومةَ أهوائِهِم في مَحْوِ رياسَتِهِم.
فينبغي للعاقل أن يَحْذَرَ شياطينَ الهوى، وأن يكون بصيراً بما يَقْوَى عليه من
أعدائِهِ، وبِمَنْ يَقْوَى عليه.



مراقبةُ الله في الخَلَوَاتِ

إِنَّ لِلخَلْوَةِ تأثيراتٍ بَيِّنُ في الخَلْوَةِ.
كم من مؤمنٍ بالله عزَّ وجلَّ، يحترِمُهُ عند الخَلَوَاتِ، فيتركُ ما يَشْتَهِي حَذَرًا من
عِقَابِهِ، أو رجاءٍ لثوابِهِ، أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طَرَحَ عودًا هنديًا على
مَجْمَرٍ، فيَفُوحُ طيبُهُ، فيَسْتَنْشِقُهُ الخلائقُ، ولا يدرونَ أين هُوَ؟
وعلى قَدَرِ المجاهدةِ في تركِ ما يهْوَى تَقْوَى محبَّتِهِ، أو على مقدارِ زيادةِ دَفْعِ ذلك
المحبوبِ المتروكِ يَزِيدُ الطيبُ، ويتفاوتُ تفاوتَ العودِ.
فترى عيونَ الخَلْقِ تُعْظَمُ هذا الشخصَ، وألْسِنَتُهُم تَمْدَحُهُ، ولا يعرفونَ لِمَ؟ ولا
يقدِّرونَ على وصفِهِ: لبعدهم عن حقيقةِ معرفتِهِ.
وقد تمتدُّ هذه الأرايحُ بعد الموتِ على قَدَرِها؛ فمنهُم مَنْ يُذَكِّرُ بالخيرِ مدَّةً مديدةً

(١) القراضة: الشيء اليسير.

ثم يُنسى، ومنهم من يُذكر مئة سنة ثم يخفى ذكره، ومنهم أعلامٌ يبقى ذكرهم أبدًا.
وعلى عكس هذا من هاب الخلق ولم يحترم خلوته بالحق؛ فإنه على قدر مبارزته
بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب؛ يفوح منه ريح الكراهة، فتَمَقُّتُهُ القلوب؛ فإن قلَّ
مقدار ما جَنَى؛ قلَّ ذكرُ الألسن له بالخير، وبقي مجرد تعظيمه. وإن كثر؛ كان قُصَارَى
الأمر سكوت الناس عنه؛ لا يمدحونه ولا يذمونه.

وربَّ خالٍ بذنبٍ كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه
قيل له: ابقَ بما أثرت! فيبقى أبدًا في التخييط.
فانظروا إخواني إلى المعاصي أثرت وعثرت.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبدَ ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلْقِي الله بُغْضَهُ في قلوب
المؤمنين من حيث لا يشعرون.

فتلَمَّحُوا ما سَطَرْتَهُ، واعْرِفُوا ما ذَكَرْتَهُ، ولا تُهْمَلُوا خَلَوَاتِكُمْ ولا سَرَائِرُكُمْ؛ فإنَّ
الأعمالَ بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص.



نصائح لطالب العلم

اعلم أن المتعلمَ يَفْتَقِرُ إلى دوام الدراسة، ومن الغلط الانهالك في الإعادة ليلًا
ونهارًا؛ فإنه لا يَلْبَثُ صاحبُ هذه الحال إلا أيامًا، ثم يَفْقُرُ أو يَمْرُضُ.
ومن الغلط تحميل القلب حفظ الكثير من فنون شتى؛ فإن القلب جارحة من
الجوارح، وكما أن من الناس من يَحْمِلُ المئة رطلٍ ومنهم من يَعِجُزُ عن عشرين رطلًا؛
فكذلك القلوب.

فليأخذ الإنسان على قدر قوته ودونها؛ فإنه إذا اسْتَفَدَّهَا في وقت؛ ضاعت منه
أوقات؛ كما أن الشرَّ يأكل فضلَ لُقيماتٍ، فيكون سببًا إلى منع أكالات! والصواب أن
يأخذ قدر ما يطيق، ويعيده في وقتين من النهار والليل، ويرفقه القوى في بقية الزمان.

والدوام أصلٌ عظيم؛ فكم ممن ترك الاستذكار بعد الحفظ، فضاع زمنٌ طويلٌ في

استرجاع محفوظ!

وللحِفْظِ أوقاتٌ من العُمُرِ؛ فأفضلُها: الصُّبَا، وما يقارِبُهُ من أوقاتِ الزمانِ، وأفضلُها: إعادةُ الأسحارِ وأنصافِ النهارِ، والغدواتُ خيرٌ من العِشَيَّاتِ، وأوقاتُ الجوعِ خيرٌ من أوقاتِ الشَّبَعِ.

والخَلْوَةُ أَصْلٌ. وَجَمْعُ الهَمِّ أَصْلُ الْأَصُولِ.

وتَرْفِيهِ النَّفْسِ من الإعادةِ يومًا في الأسبوعِ؛ لِيُثْبِتَ المحفوظُ، وتأخُذَ النَّفْسُ قُوَّةً؛ كالبنیانِ يَتَرَكُ أيامًا حتى يَسْتَقَرَّ، ثم يُبْنَى عليه.

وتَقْلِيلُ المحفوظِ مع الدَّوامِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

وَأَنْ لَا يَشْرَعَ فِي فَنٍّ حَتَّى يُحْكِمَ مَا قَبْلَهُ.

وَمَنْ لَمْ يَجِدْ نَشَاطًا لِلْحِفْظِ؛ فَلْيَتَرَكْهُ؛ فَإِنَّ مَكَابِرَةَ النَّفْسِ لَا تَصْلُحُ.

وإِصْلَاحُ الْمِزَاجِ مِنَ الْأَصُولِ الْعَظِيمَةِ؛ فَإِنَّ لِلْمَأْكُولَاتِ أَثَرًا فِي الْحِفْظِ.

قَالَ الرَّهْرِيُّ: مَا أَكَلْتُ خَلًّا مِنْذُ عَاجَلْتُ الْحِفْظَ.

وَقِيلَ لِأَبِي حَنِيفَةَ: بِمِ يُسْتَعَانُ عَلَى حِفْظِ الْفَقْهِ؟ قَالَ: بِجَمْعِ الْهَمِّ.

وَقَالَ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ: بِقِلَّةِ الْغَمِّ.

وَقَالَ مَكْحُولٌ: مَنْ نَظَّفَ ثَوْبَهُ؛ قَلَّ هَمُّهُ، وَمَنْ طَابَتْ رِيحُهُ؛ زَادَ عَقْلُهُ، وَمَنْ جَمَعَ

بَيْنَهُمَا؛ زَادَتْ مَرُوءَتُهُ.

ثُمَّ لِيَنْظُرَ مَا يَحْفَظُ مِنَ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الْعُمَرَ عَزِيزٌ وَالْعِلْمَ غَزِيرٌ، وَإِنَّ أَقْوَامًا يَصْرِفُونَ

الزَّمَانَ إِلَى حِفْظِ مَا غَيْرُهُ أَوْلَى مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ الْعُلُومِ حَسَنًا، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَى تَقْدِيمُ

الْأَهَمِّ وَالْأَفْضَلِ.

وَأَفْضَلُ مَا تُشَوِّغِلُ بِهِ حِفْظَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ الْفَقْهُ، وَمَا بَعْدَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ تَابِعٍ.

وَمَنْ رُزِقَ يَقْظَةً؛ دَلَّتْهُ يَقْظَتُهُ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى دَلِيلٍ.

وَمَنْ قَصَدَ وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِلْمِ؛ دَلَّتْهُ الْمَقْصُودُ عَلَى الْأَحْسَنِ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ

اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

في التقوى دوام العافية

من أراد العافية والسلامة؛ فليَتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنه ما من عبدٍ أطلق نفسه في شيءٍ ينافي التقوى، وإن قلَّ؛ إلَّا وجدَ عقوبته عاجلةً أو آجلةً.
ومن الاعترار أن تسيءَ، فترى إحسانًا، فتظنُّ أنك قد سُويحتَ، وتنسى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما قالت النفس: إنه يغفرُ، فتساحت! ولا شك أنه يغفرُ، ولكن لمن يشاء.
واعلم أنه من أعظم المحن الاعترارُ بالسَّلامة بعد الذنب؛ فإن العقوبة تتأخَّرُ.
ومن أعظم العقوبة أن لا يحسَّ الإنسانُ بها، وأن تكونَ في سلبِ الدين، وطمسِ القلوب، وسوء الاختيار للنفس؛ فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ الأغراض.
قال بعضُ المعتبرين: أطلقت نظري فيما لا يحلُّ لي، ثم كنتُ أنتظرُ العقوبةَ، فألجئتُ إلى سفرٍ طويلٍ لا نيةَ لي فيه، فلقيتُ المشاقَّ، ثم أعقبَ ذلك موتَ أعزِّ الخلقِ عندي، وذهابَ أشياءَ كان لها وقعٌ عظيمٌ عندي، ثم تلاقيتُ أمري بالتوبةَ، فصَلَحَ حالي، ثم عادَ الهوى، فحمَلَنِي على إطلاقِ بصري مرةً أخرى، فطمَسَ قلبي، وعَدِمْتُ رِقَّتَهُ، واستلبَ مني ما هو أكثرُ من فقدِ الأولِ، ووقع لي تعويضٌ عن المفقودِ بما كانَ فقدهُ أصلحُ.
فلَمَّا تَأَمَّلْتُ ما عَوَّضْتُ وما سَلَبَ مني؛ صَحْتُ من ألمِ تلكِ السَّياطِ؛ فها أنا أنادي مَنْ على الساحلِ:

إخواني! احذروا لجةَ هذا البحرِ، ولا تغتروا بسكونِهِ، وعليكم بالساحلِ، ولازموا حِصْنَ التَّقوى؛ فالعقوبةُ مُرَّةٌ.

واعلموا أنَّ في ملازمةِ التَّقوى مراراتٍ من فقدِ الأغراضِ والمشتهياتِ؛ غيرَ أنها في ضَرْبِ المَثَلِ كالحِمِيَّةِ تُعَقِّبُ صِحَّةً، والتخليطُ ربما جَلَبَ موتَ الفجأةِ.
وبالله؛ لو نِمْتُمْ على المزابِلِ مع الكلابِ في طَلَبِ رَحَى المبتلي؛ كان قليلًا في تَبَلٍ رضاه، ولو بَلَّغْتُمْ نهايةَ الأمانِ من أغراضِ الدُّنيا؛ مع إعراضِهِ عنكم؛ كانت سلامتكم هلاكًا، وعافيتكم مَرَضًا، وصِحَّتْكُمْ سَقَمًا. والأمرُ بِآخِرِهِ، والعاقِلُ مَنْ تَلَمَّحَ العواقِبَ.

إياك والوقوع في فخ الدنيا

الدنيا فخٌ، والجاهلُ بأولِ نظرةٍ يقعُ، فأما العاقلُ المتَّقِي؛ فهو يصابرُ المجاعةَ، ويدورُ حولَ الحبِّ، والسلامةُ بعيدةٌ؛ فكم من صابرٍ اجتهدَ سنينَ ثم في آخرِ الأمرِ وَقَعَ! فالحذرُ الحذرُ؛ فقد رأينا مَنْ كانَ على سَنَنِ الصَّوابِ، ثم زَلَّ على شَفِيرِ القبرِ^(١).

○ ○ ○ ○ ○

انتبه لنفسك

اعلموا - إخواني ومن يقبل نصيحتي! - أن للذنوبِ تأثيراتٍ قبيحةً، ومرارثها تزيدُ على حلاوتها أضعافًا مضاعفةً، والمُجازي بالمرصاد؛ لا يسبقُه شيءٌ، ولا يفوته. فوا عجبًا للمغالطِ نفسه! يُرضي نفسه شهوةً، ثم يُرضي ربَّه بطاعةٍ، ويقولُ: حسنةٌ وسيئةٌ!

ويحك! من كيسك تُنفقُ، ومن بضاعتك تهديمُ، ووجهَ جاهك تشينُ! ربَّ جراحةٍ قتلتُ، وربَّ عثرةٍ أهلكتُ، وربَّ فارطٍ لا يُستدركُ.

ويحك! انتبه لنفسك، ما الذي تنتظرُ بأوثيك؟ وماذا تترقبُ بتوئتك؟ المشيب؟ فهذا هو ذا أوهنُ العظم! وهل بعد رحيلِ الأهلِ والأولادِ والأقاربِ إلَّا اللحاقُ؟! قدَّرُ أن ما تؤمِّلُه من الدنيا قد حصَلَ، فكانَ ماذا؟! إمَّا هو عاجلٌ؛ فشغلكَ عاجلاً، ثم آخرُ جرعةٍ اللذةِ شرقةً! وإمَّا أن تفارقَ محبوبك أو يفارقَكَ. فيا لها جرعةٍ مريرةٌ تودُّ عندها أن لو لم تره!

آه لمحجوبِ العقلِ عن التأملِ، ولمضدودِ عن الورودِ وهو يرى المنهلَ! أما في هذه القبورِ نذيرٌ؟! أما في كُرورِ الزَّمانِ زاجرٌ؟! أين من ملكَ ويَلْغُ المُنَى فيما أمَلَّ؟! بأيِّ وجهٍ تلقَى ربَّك؟! أيساوي ما تناله من الهوى لفظَ عتابٍ؟! بالله؛ إنَّ الرحمةَ بعد المعاتبَةِ ربما لم تستوفِ قَلْعَ البُغْضَةِ من صميمِ القلبِ؛ فكيف إن أعقبَ العتابَ عقابٌ؟! إن أعقبَ العتابَ عقابٌ؟! إن أعقبَ العتابَ عقابٌ؟!

(١) شفير القبر: حُرْفُه وناحيته. والمعنى أنه زلَّ قبل موته ومات على الزلل والعياذ بالله.

ففرؤا إلى الله

ضاق بي أمرٌ أوجبَ عَمَّا لازِمًا دائِمًا، وأخذتُ أبالِغُ في الفِكرِ في الخلاصِ. من هذه الهمومِ بكلِّ حيلةٍ وبكلِّ وجهٍ؛ فما رأيتُ طريقًا للخلاصِ، فَعَرَضْتُ لي هذه الآيةُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمتُ أَنَّ التَّقْوَى سببٌ للمخرجِ من كلِّ غَمٍّ، فما كان إلَّا أَن هَمَمْتُ بتحقيقِ التقوى، فوجدتُ المخرجَ.

فلا ينبغي لمخلوقٍ أَنْ يَتَوَكَّلَ أو يَتَسَبَّبَ أو يَتَفَكَّرَ إلَّا في طاعةِ الله تعالى وامتنالِ أمره؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سببٌ لفتحِ كلِّ مُرْتَجٍ^(١).

ثم أعجبه أَنْ يَكُونَ من حيثُ لم يُقدِّرِ المُتَفَكِّرُ المحتالُ المُدَبِّرُ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتقي أَنْ يعلمَ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ كافيه؛ فلا يُعَلِّقُ قلبه بالأسبابِ؛ فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].



طولُ الأملِ وقصره

يجبُ على مَنْ لا يدري متى يَبْغِثُهُ الموتُ أَنْ يَكُونَ مستعدًّا، ولا يغترَّ بالشبابِ والصَّحَّةِ؛ فَإِنَّ أَقْلَ مَنْ يَمُوتُ الأشياخُ، وأكثرُ من يموتُ الشبابُ، ولهذا يَنْدُرُ مَنْ يَكْبُرُ، وقد أنشدوا:

يُعَمَّرُ واحدٌ فَيَعُرُّ قَوْمًا وَيُنْسَى مَنْ يَمُوتُ مِنَ الشَّبَابِ

ومن الاغترارِ طولُ الأملِ، وما من آفةٍ أعظمَ منه؛ فَإِنَّهُ لولا طولُ الأملِ؛ ما وَقَعَ إهمالُ أصلاً، وإنَّما يُقَدِّمُ المعاصي ويؤَخِّرُ التوبةَ؛ لطولِ الأملِ، وتُبادِرُ الشَّهَوَاتُ، وتُنْسَى الإنابةُ؛ لطولِ الأملِ.

وإنْ لم تستطعَ قِصَرَ الأملِ؛ فاعملْ عَمَلَ قِصْرِ الأملِ: ولا تُؤَسِّسِ حتى تَنْظُرَ فيما مَضَى من يومِكَ؛ فَإِنَّ رَأْيَ رَلَّةٍ؛ فاحمُها بتوبةٍ، أو خَرْقًا؛ فارْقَعْهُ باستغفارٍ. وإذا أصبحتَ؛

(١) مرتج: مغلق.

فتأمل ما مضى في ليلك. وإياك والتسويف؛ فإنه أكبرُ جنودِ إبليس:
 وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ وَمُقْبِلُ عَيْنِكَ لَمْ يُذِيرِ
 وَخَفَ هَجْمَةً لَا تُقِيلُ الْعِثَارَ وَتَطْوِي الْوُرُودَ عَلَى الْمَصْدَرِ
 وَمَثَلُ لِنَفْسِكَ أَيُّ الرَّعِيلِ يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ الْمَحْشَرِ
 ثم صَوِّرْ لِنَفْسِكَ قِصَرَ الْعُمُرِ، وكَثْرَةَ الْأَشْغَالِ، وَقُوَّةَ النَّدَمِ عَلَى التَّفَرُّطِ عِنْدَ
 الْمَوْتِ، وطَوْلَ الْحَسْرَةِ عَلَى الْبِدَارِ بَعْدَ الْقُوْتِ.
 وَصَوِّرْ ثَوَابَ الْكَامِلِينَ وَأَنْتَ نَاقِصٌ، وَالْمُجْتَهِدِينَ وَأَنْتَ مُتَكَاسِلٌ.
 وَلَا تُخْلِ نَفْسَكَ مِنْ مَوْعِظَةٍ تَسْمَعُهَا، وَفِكْرَةٍ تَحَادِثُهَا بِهَا؛ فَإِنَّ النَّفْسَ كَالْفَرَسِ
 الْمُتَشَيِّطِينَ: إِنْ أَهْمَلْتَ لِجَامِهِ؛ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَرْمِيَ بِكَ.
 وَقَدْ وَاللَّهِ دَسَّسَتْ أَهْوَاؤُكَ، وَضَيَّعَتْ عُمْرُكَ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.



الزم محراب الإنابة

أيُّهَا الْمَذْنِبُ! إِذَا أَحْسَسْتَ نَفَحَاتِ الْجَزَاءِ؛ فَلَا تَكْثُرَنَّ الضَّجِيحَ، وَلَا تَقُولَنَّ: قَدْ
 تُبْتُ وَنَدِمْتُ؛ فَهَلَّا زَالَ عَنِي مِنَ الْجَزَاءِ مَا أَكْرَهُ!
 فَلْعَلَّ تَوْبَتَكَ مَا تَحَقَّقَتْ.
 وَإِنَّ لِلْمُجَازَاةِ زَمَانًا يَمْتَدُّ امْتِدَادَ الْمَرَضِ الطَّوِيلِ؛ فَلَا تَنْجَعْ فِيهِ الْحِيلَ حَتَّى
 يَنْقِضِيَ أَوَانُهُ.
 فَاصْبِرْ أَيُّهَا الْخَاطِئُ حَتَّى يَتَخَلَّلَ مَاءُ عَيْنِكَ خِلَالَ ثَوْبِ الْقَلْبِ الْمُتَنَجِّسِ؛ فَإِذَا
 عَصَرَتْهُ كَفَّ الْأَسَى، ثُمَّ تَكَرَّرَتْ دَفْعُ الْعَسَلَاتِ؛ حُكِمَ بِالطَّهَارَةِ.
 بَقِيَ آدَمُ يَبْكِي عَلَى زَلَّتِهِ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ.
 وَمَكَثَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَلَاءِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً.
 وَأَقَامَ يَعْقُوبُ يَبْكِي عَلَى يَوْسَفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ثَمَانِينَ سَنَةً.
 وَلِلْبَلَايَا أَوْقَاتٌ ثُمَّ تَنْصَرِمُ.
 وَرَبَّ عَقُوبَةٍ امْتَدَّتْ إِلَى زَمَانِ الْمَوْتِ.

فَاللَّازِمُ لَكَ أَنْ تُلَازِمَ حِجَابَ الْإِنَابَةِ، وَتَجْلِسَ جِلْسَةَ الْمُسْتَجِدِّي، وَتَجْعَلَ طَعَامَكَ الْقَلْقَ، وَشَرَابَكَ الْبَكَاءَ؛ فَرُبَّمَا قَدِمَ بَشِيرُ الْقَبُولِ، فَارْتَدَّ يَعْقُوبُ الْحَزَنُ بِصِيرًا، وَإِنْ مُتَّ فِي سَجْنِ شَجْنِكَ^(١)؛ فَرُبَّمَا نَابَ حُزْنُ الدُّنْيَا عَنْ حُزْنِ الْآخِرَةِ، وَفِي ذَلِكَ رُبْحٌ عَظِيمٌ.



العاقل لا ينتهك حرَمَاتِ اللَّهِ

لَا تُكْرِ عَلَى مَنْ طَلَبَ لَذَّةَ الدُّنْيَا مِنْ طَرِيقِ الْمُبَاحِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَقْوَى عَلَى التَّرْكِ. إِنَّمَا الْمِخْنَةُ عَلَى مَنْ طَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا أَوْ أَكْثَرَهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْحَرَامِ، فَاجْتَهِدْ فِي تَحْصِيلِهَا، وَلَمْ يُبَالِ كَيْفَ حَصَلَتْ.

فَهَذِهِ الْمِخْنَةُ الَّتِي بُخَسَ الْعَقْلُ فِيهَا حَقُّهُ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ صَاحِبُهُ بِوُجُودِهِ لِأَنَّهُ لَوْ وَزَنَ مَا أَثَرَ وَعِقَابَهُ؛ طَاشَتْ كِفَّةُ اللَّذَّةِ الَّتِي فَنِيَتْ عِنْدَ أَوَّلِ ذَرَّةٍ مِنْ أَجْزَائِهَا. وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا يَمُنُّ أَثَرَ شَهْوَتِهِ فَسَلَبَتْ دِينَهُ!

فَلْيَعْجَبِ الْعَاقِلُ حِينَ التَّصَفُّحِ لِأَحْوَالِهِمْ؛ كَيْفَ أَثَرُوا شَيْئًا مَا أَقَامُوا مَعَهُ، وَصَارُوا إِلَى عِقَابٍ لَا يَفَارِقُهُمْ؟

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَخْسِ الْعُقُولِ حَقُّهَا!

وَلْيَنْظُرِ السَّالِكُ أَيْنَ يَضَعُ الْقَدَمَ؛ فَرُبَّ مُسْتَعْجِلٍ وَقَعَ فِي بِئْرٍ بَوَارٍ.

وَلْتَكُنْ عَيْنُ التِّيْقُظِ مَفْتُوحَةً؛ فَإِنَّكُمْ فِي صَفِّ حَرْبٍ لَا يُدْرَى فِيهِ مِنْ أَيْنَ يُتَلَقَّى النَّبْلُ؛ فَأَعِينُوا أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تُعِينُوا عَلَيْهَا.



إِيَّاكَ وَالتَّعَرُّضَ لِلْفِتَنِ

لَوْ لَا غَيْبَةُ الْعَاصِي فِي وَقْتِ الْمَعَاصِي؛ كَانَ كَالْمَعَانِدِ؛ غَيْرَ أَنَّ الْهَوَى يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَهْمِ لِلْحَالِ، فَلَا يَرَى إِلَّا قَضَاءَ شَهْوَتِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ لَاحَتْ لَهُ الْمَخَالَفَةُ؛ خَرَجَ مِنَ الدِّينِ بِالْخِلَافِ؛ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ هَوَاهُ، فَيَقْعُ الْخِلَافُ ضِمْنًا وَتَبَعًا.

وأكثر ما يقع هذا في مقاربة الفتنَةِ، وَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ عند المقاربة؛ لأنه كتقديم نارٍ إلى حَلْفَا^(١).

ثم لو مَيَّزَ العاقلُ بين قضاءِ وَطَرِهِ لحظةً وانتقضاءِ باقيِ العُمُرِ بالحسرةِ على قضاءِ ذلكِ الوَطَرِ؛ لما قُرَّبَ منه ولو أُعطي الدنيا؛ غيرَ أنَّ سكرةَ الهوى تحوّلُ بين الفِكْرِ وذلك. آهِ؛ كم معصيةٍ مضتْ في ساعتها كأنّها لم تكن ثم بقيت آثارها، وأقلّها ما لا يَبْرُحُ من المِرارةِ في الندم!

والطريقُ الأعظمُ في الحذرِ أن لا يَتَعَرَّضَ لسببِ فتنةٍ ولا يقارِبَهُ. فَمَنْ فهِمَ هذا وبالغَ في الاحترازِ؛ كانَ إلى السلامةِ أقربُ.



في صيانة العلم

رأيتُ عمومَ أربابِ الأموالِ يستخدمونَ العلماءَ ويستذلُّونهم بشيءٍ يسيرٍ يعطونهم من زكاةِ أموالهم، فإن كان لأحدهم خَتَمَةٌ؛ قال: فلانٌ ما حَصَرَ! وإن مَرَضَ؛ قال: فلانٌ ما تَرَدَّدَ! وكلُّ مَنِّيَّةٍ عليه شيءٌ نَزَرُ يجبُ تسليمُهُ إلى مثله!! وقد رَضِيَ العلماءُ بالذَّلِّ في ذلك لموضعِ الضَّرورةِ.

فأريتُ أنَّ هذا جهلٌ من العلماءِ بما يجبُ عليهم من صيانةِ العلمِ، ودواؤه من جهتين:

- * إحداهما: القناعةُ باليسيرِ؛ كما قيلَ: مَنْ رَضِيَ بِالْحَلِّ وَالْبَقْلِ؛ لَمْ يَسْتَعْبِدْهُ أَحَدٌ.
- * والثاني: صَرَفُ بعضِ الزمانِ المصروفِ في خدمةِ العلمِ إلى كَسْبِ الدنيا؛ فإنه يكونُ سبباً لإعزازِ العلمِ، وذلك أفضلُ من صَرَفِ جميعِ الزمانِ في طلبِ العلمِ، مع احتمالِ هذا الذَّلِّ. وَمَنْ تَأَمَّلَ ما تأمَّلتُهُ، وكانتْ له أَتْفَةٌ؛ قَدَّرَ قُوَّتَهُ^(٢)، واحتفظَ بها معه، أو سعى في مُكْتَسَبٍ يكفيه. ومن لم يأنفَ من مثلِ هذه الأشياءِ؛ لم يَحْظَ من العلمِ إلَّا بصورتهِ دونَ معناهِ.



(١) الخلفاء: نبات معروف.

(٢) قَدَّرَ قُوَّتَهُ: ضيقَ نفقته.

اتبع ولا تبتدع

رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَعْمَلُونَ عَلَى دَلِيلٍ، بَلْ كَيْفَ اتَّفَقَ، وَرَبِّمَا كَانَ دَلِيلُهُمُ الْعَادَاتِ! وَهَذَا أَقْبَحُ شَيْءٍ يَكُونُ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فِي الْمَعْنَى قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ وَيَتَزَهَّدُونَ وَيُنْصِبُونَ أَبْدَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ بِأَحَادِيثَ بَاطِلَةٍ، وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْهَا مَنْ يَعْلَمُ!

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُثْبِتُ الدَّلِيلَ، وَلَا يَفْهَمُ الْمَقْصُودَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَمِنْ هَذَا الْجَنْسِ قَوْمٌ سَمِعُوا دَمَّ الدُّنْيَا، فَتَزَهَّدُوا، وَمَا فَهَمُوا الْمَقْصُودَ، فَظَنُّوا أَنَّ الدُّنْيَا تُذَمُّ لِذَاتِهَا، وَأَنَّ النَّفْسَ تَحِبُّ عِدَاوَتَهَا، فَحَمَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَوْقَ مَا يُطَاقُ، وَعَذَّبُوهَا بِكُلِّ نَوْعٍ وَمَنَعُوهَا حُظُوظَهَا؛ جَاهِلِينَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١)، وَفِيهِمْ مَنْ أَدْنَتْهُ الْحَالُ إِلَى تَرْكِ الْفَرَائِضِ، وَتُحُولِ الْجِسْمِ، وَضَعْفِ الْقُوَى! وَكُلُّ ذَلِكَ لِضَعْفِ الْفَهْمِ لِلْمَقْصُودِ وَالتَّلُحُّحِ لِلْمَرَادِ.

كَمَا رَوَى عَنْ دَاوُدَ الطَّائِي: أَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ مَاءً فِي دَنٍّ^(٢) تَحْتَ الْأَرْضِ، فَيَشْرَبُ مِنْهُ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَرِّ! وَقَالَ لِسَفِيَّانٍ: إِذَا كُنْتَ تَأْكُلُ اللَّذِيذَ الطَّيِّبَ، وَتَشْرَبُ الْمَاءَ الْبَارِدَ الْمُبَرَّدَ، فَمَتَى تَحِبُّ الْمَوْتَ وَالْقُدُومَ عَلَى اللَّهِ؟! وَهَذَا جَهْلٌ بِالْمَقْصُودِ؛ فَإِنَّ شُرْبَ الْمَاءِ الْحَارِّ يَوْرِثُ أَمْرَاضًا فِي الْبَدَنِ، وَلَا يَحْصُلُ بِهِ الرَّيِّ، وَمَا أَمَرْنَا بِتَعَذُّبِ أَنْفُسِنَا عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، بَلْ يَتْرُكُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ^(٣): أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا حَلَبَ لَهُ الرَّاعِي فِي طَرِيقِ الْهَجْرَةِ؛ صَبَّ الْمَاءَ عَلَى الْقَدَحِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، ثُمَّ سَقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَفَرَسَ لَهُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ. وَكَانَ يُسْتَعَذَّبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَاءُ^(٤).

وَلَوْ فَهَمَ دَاوُدُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ إِصْلَاحَ عُلْفِ النَّاqَةِ مُتَعَيِّنٌ لِقَطْعِ الْمَسَافَةِ؛ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا.

(١) البخاري (١٩٦٨).

(٢) دَنٌّ: وعاء.

(٣) البخاري (٢٤٣٩)، ومسلم (٢٠٠٩).

(٤) أبو داود (٣٧٣٥).

ألا ترى إلى سفیان الثوري؛ فإنه كان شديد المعرفة والخوف، وكان يأكل اللذيذ، ويقول: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ يُحَسِّنْ إِلَيْهَا؛ لَمْ تَعْمَلْ.

ولعلَّ بعض مَنْ يسمعُ كلامي هذا يقول: هذا ميلٌ على الزُّهَادِ! فاقول: كنْ مع العلماء، وانظرْ إلى طريقِ الحسَنِ وسُفْيَانَ ومالكٍ وأبي حنيفةٍ وأحمدَ والشافعي، وهؤلاءُ أصولُ الإسلام، ولا تُقلِّدْ دينَكَ من قَلِّ علمه؛ وإن قَوِيَ زُهدُه، واحملْ أمرَه على أنه كان يُطيقُ هذا، ولا تقتدِ بهم فيما لا تُطيقُه؛ فليس أمرنا إلينا، والنفسُ وديعةٌ عندنا.

فإن أنكرتَ ما شرحته؛ فأنت مُلحِقٌ بالقوم الذين أنكرتُ عليهم. هذا رمزٌ إلى المقصود، والشرحُ يطول.

○○○○○

عاقبة الصبر

قرأتُ سورةَ يوسفَ عليه السلام، فتعجَّبتُ من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك.

فتأملتُ حبيته الأمر؛ فإذا هي مخالفةٌ للهوى المكروه.

فقلت: وا عجباً! لو وافق هواه؛ مَنْ كان يكون؟! ولما خالفة؛ لقد صار أمراً عظيماً؛ تُضربُ الأمثالُ بصبره، ويُفتخرُ على الخلقِ بجتهاده، وكلُّ ذلك قد كان بصبر ساعة؛ فيا له عزاً وفخراً أن تمثلك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب!

فتملَّحوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - عاقبة الصبر ونهاية الهوى! فالعاقلُ مَنْ ميَّزَ بين الأمرين؛ الحلوين والمرين؛ فإنَّ مَنْ عدَلَ ميزانه، ولم تمَلْ به كفة الهوى؛ رأى كُلَّ الأرباحِ في الصبر، وكلَّ الخسائرِ في موافقة النفس.

وكفى بهذا موعظةً في مخالفة الهوى لأهل النهى. والله الموفق.

○○○○○

أثر الرقائق في صلاح القلوب

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب؛ إلا أن يُمزَجَ بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين، فأما مجرد العلم بالحلال؛ فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترقى القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها. وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق، لأنني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همّة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدَل وما يُغالب به الخصم، وكيف يرقى القلب مع هذه الأشياء؟! وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته. فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا؛ ليكون سبباً لِرَقَّةِ قلبك. ولا يصلح العمل مع قلة العلم؛ فهما في ضرب المثل كسائق وقائد، والنفس بينهما حرون^(١) ومع جد السائق والقائد ينقطع المنزل، ونعود بالله من الفتور.



عليك بالقناعة

رأيت النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة، وتنسى كيف حُصِّلَتْ وما يتضمَّنُها من الآفات. وبيان هذا:

* أنك إن رأيت صاحب إمارة وسلطنة، فتأملت نعمته؛ وجدتها مشوبة بالظلم، فإن لم يَفْصِده هو؛ حصل من عماله، ثم هو خائف، منزِعٌ في كلِّ أمره، حذر من عدو أن يسمه، فليكن هو فوقه أن يعزله، ومن نظيره أن يكيدَه.

(١) حرون: صعب الانقياد.

* وإن رأيتَ صاحبَ تجارةٍ؛ رأيتُهُ قد تَقَطَّعَ في البلادِ، فلم ينلَ ما نالَ إلا بعدَ عُلُوِّ السَّنِّ، وذَهَابِ زَمَانِ اللَّذَّةِ.

وهذه الحالة هي الغالبة؛ فإنَّ الإنسانَ لا يكادُ يَجْتَمِعُ له كُلُّ ما يُحِبُّهُ إلا عندَ قُرْبِ رحيلِهِ؛ فإنَّ بَدَرَ ما يُحِبُّ في بدايةِ شبابه؛ فالصَّبُوةُ مانعةٌ مِنْ فَهْمِ التَّدْبِيرِ أو حُسْنِ الالتِذاذِ. والإنسانُ في حالةِ الصَّبُوةِ لا يَدْرِي أينَ هو؛ إلا أن يَبْلُغَ، فإذا بَلَغَ؛ كانتَ هِمَّتُهُ في المنكوحِ كيفما اتَّفَقَ. وإن تَزَوَّجَ؛ جاءَ الأولادُ، فَمَنَعُوهُ اللَّذَّةَ، وانكَسَرَ في نَفْسِهِ، وافْتَقَرَ إلى الكَسْبِ عليهم. فبينما هو قد دَعَكَ^(١) في تلك المَدِينَةِ القَريَةِ من الثلاثين؛ وَخَطَهُ^(٢) الشَّيْبُ، فانْفَرَقَ^(٣) من نَفْسِهِ؛ لَعَلِمَهُ أَنَّ النِّسَاءَ يَنْفَرِقْنَ مِنْهُ؛ كما قال ابنُ المَعْتَرِ بالله:

لَقَدْ اتَّعَبْتُ نَفْسِي فِي مَشِيِّي فَكَيْفَ تُجِبُّنِي الْغَيْدُ الْكَعَابُ^(٤)

وهكذا؛ لا تَرَى الْمُتَمَتِّعَ بِالْمُسْتَحْصَنَاتِ: إِن وَجَدَهُنَّ، لم يَجِدْ ما لا يَبْلُغُ به المرادَ، وإن اشْتَغَلَ بِجَمْعِ المَالِ؛ ضَاعَ زَمَنُ تَمَتُّعِهِ، وإذا تَمَّ المَطْلُوبُ؛ فالشَّيْبُ أَقْبَحُ قَذَى وأَعْظَمُ مُبْغَضٍ.

ثم إنَّ صَاحِبَ المَالِ خائفٌ على مالِهِ، مُحاسِبٌ لِمُعَامَلِيهِ، مذمومٌ إنْ أَشْرَفَ وإنْ قَتَرَ، ولَدُهُ يَرُصُّ مَوْتَهُ، وجَارِيَتُهُ قد لا تَرْضَى بِشَخْصِهِ، وهو مشغولٌ بِحَفْظِ حَوَاشِيهِ؛ فَقَدْ مَضَى زَمَانُهُ في مَحْنٍ، واللَّذَاتُ فِيهَا خِلَسٌ^(٥) مُعْتَادَةٌ لا لَذَّةَ فِيهَا.

ثم في القِيَامَةِ يُجَشَّرُ الأَمِيرُ والتَّاجِرُ خَزَايا إلا مَنْ عَصَمَ اللهُ. فَإِنَّكَ أَنْ تَنْظُرَ إلى صُورَةِ نَعِيمِهِمْ؛ فَإِنَّكَ تَسْتَطِيعُ لِبُعْدِهِ عَنْكَ، ولو قد بَلَغْتَهُ؛ كَرِهْتَهُ، ثم في ضَمْنِهِ مِنْ مَحْنِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ ما لا يُوصَفُ؛ فعَلَيْكَ بِالقَنَاعَةِ مَهْمَا أَمَكْنَ؛ ففِيهَا سَلامَةُ الدُّنْيَا والدينِ.

(١) دَعَكَ: تَمَرَّسَ.

(٢) وَخَطَهُ: أَسْرَعَ إِلَيْهِ.

(٣) انْفَرَقَ: فَرَعَ.

(٤) الْغَيْدُ الْكَعَابُ: الْفَاتِنَاتُ النَّاهِدَاتُ مِنَ الْفِتْيَاتِ.

(٥) خِلَسٌ: تُهْبَ تَخْتَلِسُ سَرِيعًا وَلَا تَدُومُ.

وقد قيل لبعض الرُّهَّادِ وعنده خبرٌ يابِسٌ: كيف تَشْتَهِي هذا؟ فقال: أتركُهُ حتَّى أَشْتَهِيهِ.

أسباب ظهور الأهواء والبدع

تأملْتُ الدَّخَلَ^(١) الذي دَخَلَ في ديننا من نَاجِيَتِي العلم والعمل، فرأيتُهُ من طريقين قد تَقَدَّمَا هذا الدين، وأنَسَ الناسُ بهما:

* فأما أصلُ الدَّخَلِ في العلم والاعتقاد؛ فمِنْ الفَلَسَفَةِ. وهو أَنَّ خَلْقًا من العلماء في ديننا لم يَقْنَعُوا بما قَنَعَ به رسولُ الله ﷺ مِنَ الانعكافِ على الكتابِ والسُّنَّةِ، فأوْغَلُوا في النظرِ في مذاهبِ أهلِ الفلسفةِ، وخاضُوا في الكلامِ الذي حَمَلَهُمْ على مذاهبِ رَدِّيَّةٍ، أفسدوا بها العقائد.

* وأما أصلُ الدَّخَلِ في بابِ العمل؛ فمِنْ الرُّهْبَانِيَّةِ. فَإِنَّ خَلْقًا من المتزهدين أخذوا عن الرُّهبانِ طريقَ التَّقشُّفِ، ولم يَنْظُرُوا في سيرة نبيِّنا ﷺ وأصحابِهِ، وَسَمِعُوا دَمَّ الدُّنْيَا وما فَهَمُوا المقصودَ، فاجْتَمَعَ لهم الإعراضُ عن علمِ شَرْعِنَا مع سوءِ الفهمِ للمقصودِ، فَحَدَّثَتْ منهم بدعٌ قبيحةٌ.

فأولُ ما ابتدأ به إبليسُ أَنَّهُ أَمَرَهُم بالإعراضِ عن العلم، فَدَفَنُوا كُتُبَهُمْ وَغَسَلُواها، وَأَلْزَمَهُمْ زاويةَ التَّعَبُّدِ فيما زَعَمَ، وأظهرَ لهم مِنَ الحُرْعِلَاتِ ما أَوْجَبَ إقبالَ العوامِّ عليهم، فَجَعَلَ إلهُهم هواهُم، ولو عَلِمُوا أَنَّهُمْ منذ دَفَنُوا كُتُبَهُمْ وفارقوا العلمَ انطفأ مصباحُهم؛ ما فَعَلُوا، لكنَّ إبليسَ كان دَقِيقَ السِّمَكْرِ يومَ جَعَلَ عِلْمَهُمْ في دفينِ تحتِ الأرضِ!

وبالعلم يُعْلَمُ فسادُ الطريقينِ وَيُهْتَدَى إلى الأصوبِ.

نسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لا يَخْرِجَنَا إِيَّاهُ؛ فَإِنَّهُ النُّورُ في الظُّلُمِ، والأُنَيْسُ في الوَحْدَةِ، والوزيرُ عندَ الحادثةِ.



شرفُ الزمانِ

أعوذُ بالله من صُحْبَةِ البطَّالين!

لقد رأيتُ خَلْقًا كثيرًا يَجْرُونَ معي فيما قد اعتادَهُ الناسُ من كثرةِ الزيارة، ويسْمُونَ ذلك التردّدَ خِدْمَةً، ويطلبُونَ الجلوسَ، ويَجْرُونَ فيه أحاديثَ الناسِ وما لا يعْنِي وما يتخلَّله غيبةٌ!

وهذا شيءٌ يفعلُهُ في زماننا كثيرٌ من الناسِ، وربما طلبَهُ المَزُورُ، وتشوَّقَ إليه، واستوحشَ من الوحْدَةِ، وخصوصًا في أيامِ التَّهاني والأعيادِ، فتراهم يَمْشِي بعضهم إلى بعضٍ، ولا يَتَصَرَّوْنَ على الهناءِ والسلامِ، بل يَمْزُجُونَ ذلك بما ذكُرْتُهُ من تَضْيِيعِ الزَّمانِ. فلما رأيتُ أَنَّ الزَّمانَ أَشْرَفُ شيءٍ، والواجبُ انتهابُهُ بفعلِ الحَتَرِ؛ كرهتُ ذلك، وبقيتُ معهم بينَ أمرين: إن أنكرتُ عليهم؛ وَقَعْتُ وَخْشَةً؛ لموضعِ قَطْعِ المألوفِ! وإن تَقَبَّلْتُهُ منهم؛ ضاعَ الزَّمانُ!

فصرتُ أدافعُ اللقَاءَ جهدي؛ فإذا غُلِبْتُ؛ قَصَّرتُ في الكلامِ؛ لأتَعَجَّلَ الفراقَ. ثم أعددتُ أعمالًا تمنعُ من المحادثةِ لأوقاتِ لقائهم؛ لئلا يمضي الزَّمانُ فارغًا، فجعلتُ من المُسْتَعَدِّ لِلْقَائِمِ: قطعَ الكاغِدِ^(١)، وبرِّي الأفلامَ، وحَزَمَ الدفاترِ؛ فإن هذه الأشياءَ لا بدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فِكْرٍ وحضورِ قلبٍ، فأرصدتها لأوقاتِ زيارتهم؛ لئلا يضيّعَ شيءٌ من وقتي.

نسألُ الله عزَّ وجلَّ أن يُعَرِّفَنَا شَرَفَ أوقاتِ العُمُرِ، وأن يوفِّقَنَا لاغتنامِهِ. ولقد شاهدتُ خَلْقًا كثيرًا لا يعرفونَ معنى الحياة: فمنهُم مَن أغناهُ الله عن التَّكسُّبِ بكثرةِ مالِهِ؛ فهو يقعدُ في السوقِ أكثرَ النهارِ ينظرُ إلى الناسِ، وكم تمرُّ به من آفةٍ ومنكرٍ! ومنهُم مَن يَخْلُو بِلَعِبِ الشَّطْرَنْجِ! ومنهُم مَن يَقَطِّعُ الزَّمانَ بِكَثْرَةِ الحوادثِ من السلاطينِ والغلاءِ والرُّخصِ... إلى غيرِ ذلك.

فعلمتُ أَنَّ الله تعالى لم يُطْلِعْ على شَرَفِ العُمُرِ ومعرفةِ قَدْرِ أوقاتِ العافيةِ إلَّا مَن وَفَّقَهُ وألهمَهُ اغتنامَ ذلك، ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [نصل: ٣٥].

حلاوة طلب العلم

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم، فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذ؛ فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من قرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات، فكلهم نادى في حالة الكبر.

فأما من أنفق عصر الشباب في العلم؛ فإنه في زمن الشيخوخة يحمّد جنى ما عرس، ويلتذ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يقعد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به إدراك المطلوب، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها؛ كما قال الشاعر:

أهتزّ عند تمني وصلها طرباً ورُبّ أمنيّة أحلى من الظفر

ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يقتني مما نالوه؛ إلا ما لو حصل لي ندمت عليه.

ثم تأملت حالي؛ فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلتُهُ من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك؟!

فقلت له: أيها الجاهل! تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف، وما طالت طريق أدت إلى صديق.

جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَابَا كَالْمَزَادِ

ولقد كنت في حلاوة طلب العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء؛ فكلما أكلت لقمة؛ شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم.

فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه وأحوال أصحابه وتابعيه.

وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يُدرك بالعلم، حتى إنني أذكر في زمان الصبوة

ووقت الغلطة^(١) والعزبة قُدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله عز وجل، ولولا خطايا لا يخلو منها البشر؛ لقد كنت أخاف على نفسي من العجب.

غير أنه عز وجل صانني وعلمني وأطلعني من أسرار العلم على معرفته وإثارة الخلوة به، حتى إنه لو حصر معي معروف وبشر؛ لرأيتها زحمة. ثم عاد، فغمسني في التقصير والتفريط، حتى رأيت أقل الناس خيراً مني.

ولقد جلست يوماً، فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما فيهم إلا من قد رَقَّ قلبه، أو دَمَعَتْ عينه، فقلتُ لنفسي: كيف بك إن نجوا وهلكت؟! فصحْتُ بلسانٍ وجدي:

إلهي وسيدي! إن قصَّيت عليَّ بالعذاب غداً؛ فلا تُعلمهم بعذابي؛ صيانةً لكرمك، لا لأجلي؛ لئلا يقولوا: عَذَّبَ مَنْ دَلَّ عليه.

إلهي! قد قيلَ لنبيك ﷺ: اقْتُلْ ابْنَ أَبِي الْمُنَافِقِ! فقال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(٢).

إلهي! فاحفظ حُسن عقائدهم في بكرمك أن تُعلمهم بعذاب الدليل عليك. حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي.

لا تَبْرَ عوداً أَنْتَ رَيْسُهُ
لا تُغَطِّشِ الزَّرْعَ الَّذِي نَبَتْهُ
حاشا لياني الجود أن ينقضا
بصوب إنعامك قد رَوْضاً

○○○○○

في تأديب الصبيان

تدبير الأولاد؛ يكون بحفظهم من مخالطة تُفسد، ومتى كان الصبي ذا آتفة، حياءً؛ رَجِي خيره. وليُحْمَلْ على صحبة الأشراف والعلماء، وليُحَذَّرْ من مصاحبة الجهال والسفهاء؛ فإنَّ الطبع لَصُر.

وليُحَذَّرِ الصبي من الكذب غاية التحذير، ومن المخالطة للصبيان، وليوص

(١) الغلطة: شدة الرغبة في النكاح.

(٢) البخاري (٤٩٠٥)؛ ومسلم (٢٥٨٤).

بزيادة البرِّ للوالدين، وليُحَفَظَ من مخالطة النساء، فإذا بَلَغَ؛ فَلْيُزَوِّجْ بِصَبِيَّةٍ، فيتفعان.
هذه الإشارةُ إلى تدبيرِ أمورِ الدنيا.

فأما تدبيرُ العلم؛ فينبغي أن يُحْمَلَ الصَّبِيُّ من حين يبلغُ خمسَ سنينَ على التشاغلِ
بالقرآنِ والفقهِ وسماعِ الحديثِ، وليُحَصَّلَ له المحفوظاتُ أَكْثَرَ من المسموعاتِ؛ لأنَّ
زمانَ الحِفْظِ إلى خمسَ عشرةَ سنةً؛ فإذا بَلَغَ؛ تَشَتَّتْ هِمَّتُهُ، فَلْيُضْرَبْ تارةً، ويُرْشَى أخرى؛
ليبلغَ وقد حَصَلَ محفوظاتُ سِنِيَّةٍ.

وأولُ ما ينبغي أن يُكَلَّفَ: حفظُ القرآنِ متقناً؛ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ ويختلطُ باللحمِ والدمِ، ثم
مقدمةٌ من النَّحْوِ يعرفُ بها اللَّحْنَ، ثم الفقهُ مذهباً وخلاقاً، وما أمكنَ بعدَ هذا من
العلوم؛ حفظُهُ حسنٌ.

فالحِفْظُ في الصِّبَا لِلْمُهِّمِّ من العلمِ أصلٌ عظيمٌ.
وقد رأينا كثيراً ممن تشاغلَ بالمسموعاتِ وكتابةِ الأجزاء، ورأى الحِفْظَ صَعْباً،
فمالَ إلى الأسهلِ، فمضى عُمُرُهُ في ذلك، فلما احتاجَ إلى نفسه؛ قَعَدَ يَتَحَفَّظُ على كِبَرٍ، فلم
يُحَصَّلْ مقصوده.

فاليقظةُ لفهمِ ما ذكُرْتُ، وانظر في الإخلاصِ؛ فما ينفعُ شيءٌ دونَه.



في لزومِ الحذرِ والخوفِ من الله

تأملْتُ حالةَ أزعجتني، وهو أَنَّ الرجلَ قد يَفْعَلُ مع امرأتهِ كُلَّ جميلٍ وهي لا تُحِبُّهُ،
وكذا يَفْعَلُ مع صديقهِ والصديقُ يُبْغِضُهُ، وقد يَتَقَرَّبُ إلى السلطانِ بكلِّ ما يَقْدِرُ عليه
والسلطانُ لا يُؤَثِّرُهُ، فيبقى متحيراً يقولُ: ما حيلتي؟!

فَخِفْتُ أَنْ تكونَ هذهِ حالتي مع الخالقِ سبحانه؛ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، وهو لا يُريدُنِي،
وربَّما يكونُ قد كَتَبَنِي سَقِيّاً في الأزلِ.

ومن هذا خافَ الحسنُ، فقال: أخافُ أَنْ يكونَ أَطَّلَعَ على بعضِ ذُنُوبِي، فقال: لا
غفرتُ لك.

فليس إلا القلق والخوف، لعل سفينة الرّجا تسلم يوم دُخولها الشاطئ من جُرف^(١).



في فضل النظر والتأمل

تدبّرت أحوال الأخيار والأشرار، فرأيت سبب صلاح الأخيار النّظر، وسبب فساد الأشرار إهمال النّظر.

وذاك أنّ العاقل ينظر، فيعلم أنّه لا بدّ من صانع، وأنّ طاعته لازمة، ويتأمّل معجزات رسول الله ﷺ، فيسلم قيادته إلى الشرع، ثم ينظر فيما يُقرّبهُ إليه ويُرّفهُ لديه. فإذا شقّ عليه إعادة العلم؛ تأمّل تمرّته، فسَهّل ذلك.

وإذا صعب عليه قيام الليل؛ فكذلك.

وإذا رأى مشتهى؛ تأمّل عاقبته، فعلم أنّ اللذة تَفنى، والعار والإثم يقيان؛ فيسهّل عليه التّرك.

وإذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه؛ ذكر ثواب الصبر، ونَدَم الغضبان على أفعاله في حال الغضب. ثم لا يزال يتأمّل سرعة ممرّ العمر، فيغتنمه بتحصيل أفضل الفضائل، فينال مُناه.

وأما الغافل؛ فإنّه لا يرى إلاّ الشيء الحاضر؛ فمنهم من لم يتأمّل في معنى المصنوع وإثبات الصّانع، فجحدوا، وتركوا النّظر، وجحدوا الرسل وما جاؤوا به، ونظروا إلى العاجل، ولم يتفكّروا في مبدئه ومنتهاه؛ فليس عندهم من عرفان المطعّم إلاّ الأكل، ولو تأملوا كيف أنشئ؟ ولماذا جعل حافظاً للأبدان؟ لعرّفوا حقائق الأمور! وكذلك كلّ شهوة تعرّض لهم؛ لا ينظرون في عاقبتها - بل في عاجل لذتها - وكم قد جنّت عليهم من وقوع حدّ، وقطع يد وفضيحة! فتعجيل اللذة يفوت الفضائل ويحصل الرذائل، وسببه عدم النّظر في العواقب، وهذا شغل العقل، وذاك المذموم شغل الهوى.

نسأل الله عزّ وجلّ يقظة تُرينا العواقب، وتكشف لنا الفضائل والمعائب، إنّه قادرٌ على ذلك.

(١) جرف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله. وقد مرّ.

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

مِنْ أَكْبَرِ الدَّلِيلِ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ هَذِهِ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ، الْمُمَيَّزَةُ، الْمَحْرُكَةُ لِلْبَدَنِ عَلَى مُقْتَضَى إِرَادَتِهَا، وَالتِّي دَبَّرَتْ مَصَالِحَهَا، وَتَرَقَّتْ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَفْلَاقِ، وَاكْتَسَبَتْ مَا أُمَكَّنَ تَحْصِيلُهُ مِنَ الْعُلُومِ، وَشَاهَدَتْ الصَّانِعَ فِي الْمَصْنُوعِ؛ فَلَمْ يَحْجُبْهَا سِتْرٌ وَإِنْ تَكَاثَفَ! وَلَا يُعْرَفُ مَعَ هَذَا مَا هِيَئَتْهَا، وَلَا كَيْفِيَّتُهَا، وَلَا جَوْهَرُهَا، وَلَا مَحَلُّهَا، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ؟ وَلَا يُدْرَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟ وَلَا كَيْفَ تَعَلَّقَتْ بِهَذَا الْجَسَدِ؟ وَهَذَا كُلُّهُ يَوْجِبُ عَلَيْهَا أَنْ هِيَ مُدَبِّرَةٌ وَخَالِقَةٌ، وَكَفَى بِذَلِكَ دَلِيلًا عَلَيْهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ وَجَدَتْ بِهَا؛ لَمَا خَفِيََتْ أَحْوَالُهَا عَلَيْهَا.

فَسُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ.

○○○○○

راقب ربك ودعك من الخلق

الْعَاقِلُ مَنْ يَحْفَظُ جَانِبَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ غَضِبَ الْخَلْقُ. وَكُلُّ مَنْ يَحْفَظُ جَانِبَ الْمَخْلُوقِينَ، وَيُضَيِّعُ حَقَّ الْخَالِقِ؛ يُقَلِّبُ اللَّهُ قَلْبَ الَّذِي قَصَدَ أَنْ يُرْضِيَهُ، فَيُسَخِّطُهُ عَلَيْهِ.

قَالَ الْمَأْمُونُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لَا تَعْصِ اللَّهَ بِطَاعَتِي؛ فَيَسْلُطُنِي عَلَيْكَ. وَلَمَّا خَرَجَ الرَّاشِدُ^(١) مِنْ بَغْدَادَ، وَأَرَادُوا تَوَلِيَّةَ الْمُقْتَنِي؛ شَهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّهُودِ بِأَنَّ الرَّاشِدَ لَا يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ، فَتَزَعَوْهُ، وَوَلَّوْا الْمُقْتَنِي، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ ذَكَرَ لِلْمُقْتَنِي بَعْضَ الشُّهُودِ، فَذَمَّهُ، وَقَالَ: كَانَ فَيَمَنْ أَعَانَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ^(٢).

وَعَلَى ضِدِّ هَذَا كُلُّ مَنْ يُرَاعِي جَانِبَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ؛ يَرْضَى عَنْهُ مَنْ سَخِطَ عَلَيْهِ. وَلَقَدْ حَدَّثَنِي الْوَزِيرُ ابْنُ هُبَيْرَةَ أَنَّ الْمُسْتَنْجِدَ بِاللَّهِ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا وَهُوَ يَوْمُئِذٍ وَلِيُّ عَهْدٍ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَرْهُ مِنْ أَبِيهِ. قَالَ: فَقُلْتُ لِلْوَاصِلِ بِهِ: وَاللَّهِ مَا يُمَكِّنُنِي أَقْرُوهُ وَلَا أَجِيبُ

(١) الراشد بالله أحد خلفاء العباسيين.

(٢) كنية الراشد بالله.

عنه. فلَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ؛ دَخَلْتُ عليه، فقلتُ: أكبرُ دليلٍ على صِدْقِي وإخلاصِي أنَّي ما حَاطَيْتُكَ في أيلِكَ. فقالَ: صدقتَ؛ أنتَ الوزيرُ.
 فينبغي أن يُحَسِّنَ القصدَ لطاعةِ الخالقِ، وإن سَخِطَ المخلوقُ؛ فَإِنَّهُ يَعودُ صاغراً، ولا يُسَخِطُ الخالقُ؛ فَإِنَّهُ يُسَخِطُ المخلوقَ، فيفوتُ الحظَّانِ جميعاً.

○ ○ ○ ○ ○

احفظ سرك

رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَتِمَّ الْكَوْنَ مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِمْ؛ إِذَا ظَهَرَ؛ عَاتَبُوا مَنْ أَخْبَرُوا بِهِ.
 فَوَا عَجَبًا! كَيْفَ ضَاقُوا بِحَبْسِهِ ذَرْعًا، ثُمَّ لَا مَوَّاءَ مِنْ أَفْشَاءِهِ؟!
 وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ النَّفْسَ يَضْعُبُ عَلَيْهَا كَتَمُ الشَّيْءِ، وَتَرَى بِإِفْشَائِهِ رَاحَةً، خُصُوصًا إِذَا كَانَ مَرَضًا أَوْ هَمًّا أَوْ عِشْقًا، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي إِفْشَائِهَا قَرِيبَةٌ، إِنَّمَا اللَّازِمُ كِتْمَانُهُ؛ اِحْتِيَالُ الْمُحْتَاطِ فِيهَا يُرِيدُ أَنْ يُحْصَلَ بِهِ غَرَضًا؛ فَإِنَّ مِنْ سُوءِ التَّدْبِيرِ إِفْشَاءَ ذَلِكَ قَبْلَ تَمَامِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا ظَهَرَ؛ بَطَلَ مَا يُرَادُ أَنْ يُفْعَلَ، وَلَا عُذْرَ لِمَنْ أَفْشَى هَذَا النُّوعَ.
 وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا؛ وَرَى بِغَيْرِهِ (١).
 فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّمَا أَحَدُثُ مَنْ أَتَى بِهِ.
 قِيلَ لَهُ: وَكُلُّ حَدِيثٍ جَاوَزَ الْاِثْنَيْنِ شَائِعٌ، وَرَبَّمَا لَمْ يَكُنْ صَدِيقُكَ، وَكَمْ قَدْ سَمِعْنَا مَنْ يُحَدِّثُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْقَبْضِ عَلَى صَاحِبٍ، فَتَمَّ الْحَدِيثُ إِلَى الصَّاحِبِ، وَهَرَبَ، فَفَاتَ السُّلْطَانُ مَرَادَهُ! وَإِنَّمَا الرَّجُلُ الْحَازِمُ الَّذِي لَا يَتَعَدَّاهُ سِرُّهُ، وَلَا يُفْشِيهِ إِلَى أَحَدٍ.
 وَسَتْرُ الْمَصَائِبِ مِنْ جُمْلَةِ كِتْمَانِ السِّرِّ؛ لِأَنَّ إِظْهَارَهَا يَسُرُّ الشَّامِتَ، وَيُؤْلِمُ الْمُحِبَّ.
 وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُمَ مَقْدَارَ السَّنِّ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَبِيرًا؛ اسْتَهْزَمُوهُ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا؛ اخْتَقَرُوهُ.

وَمَا قَدْ انْهَالَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَرِّطِينَ: أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ بَيْنَ أَصْدِقَائِهِمْ أَمِيرًا أَوْ سُلْطَانًا، يَقُولُونَ فِيهِ، فَيُبْلَغُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ سَبَبَ الْهَلَاكِ.

وربما رأى الرجل من صديقه إخلاصاً وافيّاً، فأشاع سرّه.
وقد قيل:

أَخَذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَأَخَذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةٍ
فَلَرَبِّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ قِي فَكَانَ أَذْرَى بِالْمَضَرَّةِ

○○○○○

متى تتزوّد للأخرة؟

ما أَبْلَهَ مَنْ لَا يَعْلَمُ متى يَأْتِيهِ الموتُ؛ وهو لَا يَسْتَعِدُّ لِلْقَائِلَةِ!
وأشدُّ الناسِ بَلَهًا وَتَغْفِيلًا مَنْ قَدْ عَبَرَ السَّتينَ وَقَارَبَ السَّبعينَ - فَإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا هُوَ
مُعْتَرَكُ الْمَنَيا^(١)، وَمَنْ نَازَلَ الْمُعْتَرَكُ؛ اسْتَعَدَّ - وهو مع ذلك غافلٌ عن الاستعداد.
قَالَ الشَّبَابُ لَعَلَّنَا فِي شَيْبِنَا نَدْعُ الذُّنُوبَ فَمَا يَقُولُ الْأَشْيَبُ
والله؛ إِنَّ الضَّحِكَ مِنَ الشَّيْخِ ما لَهُ معْنَى، وَإِنَّ المُزَاحَ مِنْهُ بَارِدُ المعْنَى، وَإِنَّ
تَعَرُّضَهُ بِالدُّنْيَا - وَقَدْ دَفَعَتْهُ عَنْهَا - يُضْعِفُ القُوَى وَيُضْعِفُ الرِّايَ.

وهل بقي لابن ستين منزل؟!

فَإِنْ طَمِعَ فِي السَّبعينَ؛ فَإِنَّمَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا بَعْناءٍ شَدِيدٍ إِنْ قَامَ دَفَعَ الْأَرْضَ، وَإِنْ مَشَى
هَلَتْ، وَإِنْ قَعَدَ تَنَفَّسَ، وَيَرى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَنَاوُلِهَا؛ فَإِنْ أَكَلَ كَدَّ المِعْدَةِ،
وَصُعَبَ الهَضْمِ، وَإِنْ وَطِئَ آذَى المَرَاةِ، وَوَقَعَ دَنَفًا^(٢) لَا يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ مَا ذَهَبَ مِنَ القُوَّةِ
إِلَى مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فَهُوَ يَعِيشُ عَيْشَ الْأَسِيرِ.

فَإِنْ طَمِعَ فِي الثَّمانينَ؛ فَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيْهَا زَحْفَ الصَّغِيرِ.

وَعَشْرُ الثَّمانينَ مَنْ خَاصَّهَا فَإِنَّ المَلِمَاتِ فِيهَا فُنُونُ

فَالعَاقِلُ مَنْ فَهِمَ مَقَادِيرَ الزَّمانِ.

(١) معترك المنيا: من السنين ما بين الستين إلى السبعين.

(٢) دنفاً: شديد المرض.

فإنَّه فيما قبل البلوغ صَبِيٌّ ليس على عُمُرِهِ عِيَارٌ^(١)؛ إِلَّا أَنْ يُرَزَّقَ فِطْنَةً؛ ففي بعض الصبيانِ فِطْنَةٌ تَحْتُمُّهُمْ مِنَ الصَّغَرِ على اكتسابِ المكارمِ والعلومِ.
فإذا بَلَغَ؛ فليعلم أَنَّهُ زمانُ المجاهدةِ للهوى وتعلُّمِ العلم، فإذا رُزِقَ الأولادَ؛ فهو زمانُ الكَسْبِ للمعاملةِ.

فإذا بَلَغَ الأربعينَ؛ انتهى تمامُهُ، وقضى مناسِكَ الأجلِ، ولم يَبْقَ إِلَّا الانحدارُ إلى الوطنِ.
كَأَنَّ الْفَتَى يَرْقَى مِنَ الْعُمُرِ سُلَّمًا إِلَى أَنْ يَجُوزَ الْأَرْبَعِينَ وَيَنْحَطُّ
فينبغي له عندَ تمامِ الأربعينَ أَنْ يَجْعَلَ جُلَّ هِمَّتِهِ التزوُّدَ للآخرةِ، ويكونَ كُلُّ تَلْمُحِهِ لما بينَ يديه، ويأخذَ في الاستعدادِ للرحيلِ، وإنْ كَانَ الْخَطَابُ بهذا لَابْنِ عشرينَ؛ إِلَّا أَنْ رَجَاءَ التَّدَارُكِ فِي حَقِّ الصَّغِيرِ لَا فِي حَقِّ الْكَبِيرِ.

فإذا بَلَغَ الستينَ؛ فَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْأَجْلِ، وَجَازَ مِنَ الزَّمَنِ؛ فَلْيُقْبَلْ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى جَمْعِ زَادِهِ وَتَهْيِئَةِ آلَاتِ السَّفَرِ، وَلْيَعْتَقِدْ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَحْيَا فِيهِ غَنِيمَةً مَا هِيَ فِي الْحَسَابِ؛ خُصُوصًا إِذَا قَوِيَ عَلَيْهِ الضَّعْفُ وَزَادَ؛ فَإِنَّهُ لَا مُحَرَّكَ كَهَوَى.
وَكَلَّمَا عَلَتْ سِنُّهُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَزِيدَ اجْتِهَادَهُ.

فإذا دَخَلَ فِي عَشْرِ الثَّمَانِينَ؛ فَلَيْسَ إِلَّا الْوَدَاعُ، وَمَا بَقِيَ مِنَ الْعُمُرِ إِلَّا أَسْفٌ عَلَى تَفْرِيطٍ أَوْ تَعَبُدٍ عَلَى ضَعْفٍ.
نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقُطْطَةِ تَامَةٍ، تَصْرِفُ عَنَّا رُقَادَ الْغَفَلَاتِ، وَعَمَلًا صَالِحًا نَأْمَنُ مَعَهُ مِنَ النَّدَمِ يَوْمَ الْإِنْتِقَالِ.

حَقِيقَةُ اللَّذَّةِ

لَقَدْ عَقَلَ طُلَّابُ الدُّنْيَا عَنِ اللَّذَّةِ فِيهَا، وَمَا اللَّذَّةُ فِيهَا؛ إِلَّا شَرَفُ الْعِلْمِ، وَزَهْرَةُ الْعِفَّةِ، وَأَنْفَعَةُ الْحِمِيَّةِ، وَعِزُّ الْقَنَاعَةِ، وَحِلَاوَةُ الْإِفْضَالِ عَلَى الْخَلْقِ.
فَمَا اللَّاتِلُذُّ بِالْمَطْعَمِ وَالْمَنَكْحِ؛ فَشُغْلُ جَاهِلٍ بِاللَّذَّةِ؛ لِأَنَّ ذَاكَ لَا يُرَادُّ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِإِقَامَةِ الْعَوَاضِ فِي الْبَدَنِ وَالْوَلَدِ.

* وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي النِّكَاحِ؛ وَهِيَ قَبْلُ الْمُبَاشَرَةِ لَا تَحْصُلُ، وَفِي حَالِ الْمُبَاشَرَةِ فَلَقٌّ لَا يَنْبُتُ، وَعِنْدَ

(١) عيار: وزن أو كيل. والمعنى أن الصبي قبل البلوغ لا حساب عليه.

انقضائها كأن لم تكن، ثم تُثْمِرُ الضَّعْفَ في البدن؟!
 * وأَيُّ لَذَّةٍ في جمع المالِ فَضْلاً عن الحاجة؛ فَإِنَّهُ مُسْتَعْبِدٌ لِلخَازِنِ؛ يَبِيتُ حَذِراً عَلَيْهِ،
 وَيَدْعُوهُ قَلِيلُهُ إِلَى كَثِيرِهِ؟!
 * وأَيُّ لَذَّةٍ في المَطْعَمِ؛ وعند الجوعِ يَسْتَوِي خَشْنُهُ وَحَسَنُهُ؛ فإذا ازدادَ الأكلُ؛ خَاطَرَ
 بِنَفْسِهِ؟!

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام: بُيِّنَتِ الفتنَةُ على ثلاثٍ: النساءِ؛ وهُنَّ فَخِذُ إبليسَ
 المنصوبُ، والشرابِ؛ وهو سيفُ المُرْهَفِ، والدينارِ والدِّرْهَمِ؛ وهما سَهْمَا المسمومانِ.
 فَمَنْ مالَ إلى النساءِ؛ لم يَصِفْ له عيشٌ، وَمَنْ أَحَبَّ الشَّرَابَ؛ لم يُمَتِّعْ بِعَقْلِهِ، وَمَنْ
 أَحَبَّ الدينارَ والدِّرْهَمَ؛ كَانَ عَبْدًا لهما ما عاش.

○ ○ ○ ○ ○

النَّعِيمُ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعِيمِ

تَأَمَّلْتُ عَجَبًا، وهو أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفْسٍ خَطِيرٍ يَطُولُ طَرِيقُهُ وَيَكْثُرُ التَّعَبُ فِي تَحْصِيلِهِ.
 فَإِنَّ العِلْمَ لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الْأَشْيَاءِ؛ لَمْ يَخْصُلْ إِلَّا بِالتَّعَبِ وَالسَّهَرِ وَالتَّكْرَارِ
 وَهَجْرِ اللَّذَاتِ وَالرَّاحَةِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: بَقِيَتْ سِنِينَ أَشْتَهَى الْهَرِيسَةَ لَا أَقْدِرُ؛
 لِأَنَّ وَقْتَ بَيْنِهَا وَقْتُ سَمَاعِ الدَّرْسِ!
 ونحوُ هذا تَحْصِيلُ الْمَالِ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَخَاطَرِ وَالْأَسْفَارِ وَالتَّعَبِ الْكَثِيرِ.
 وَكَذَلِكَ نَيْلُ الشَّرَفِ بِالْكَرَمِ وَالْجُودِ؛ فَإِنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى جِهَادِ النَّفْسِ فِي بَذْلِ الْمَحْبُوبِ،
 وَرَبِّهَا أَلَّ إِلَى الْفَقْرِ. وَكَذَلِكَ الشَّجَاعَةُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْمَخَاطَرَةِ بِالنَّفْسِ.
 قَالَ الشَّاعِرُ:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ^(١) وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ
 وَمِنْ هَذَا الْفَنِّ تَحْصِيلُ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ يَزِيدُ عَلَى قُوَّةِ الْاجْتِهَادِ وَالتَّعَبِ،
 أَوْ عَلَى قَدْرِ وَقَعِ الْمَبْدُولِ مِنَ الْمَالِ فِي النَّفْسِ، أَوْ عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ عَلَى فَقْدِ الْمَحْبُوبِ
 وَمَنْعِ النَّفْسِ، مِنَ الْجَزَعِ. وَكَذَلِكَ الزُّهْدُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرِ عَنِ الْهَوَى، وَالْعَفَافُ لَا يَكُونُ

(١) هذا في الظاهر أما الحقيقة فقد قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مالٍ».

إِلَّا يَكْفُ كَفُّ الشَّرِّ.

ولولا ما عانى يوسف عليه السلام؛ ما قيل له: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٨].
ولله أقوامٌ ما رَضُوا مِنَ الفضائلِ إِلَّا بتحصيلِ جميعِها؛ فهم يبالغون في كلِّ علمٍ،
ويجتهدون في كلِّ عملٍ، ويثابرون على كلِّ فضيلةٍ؛ فإذا ضَعُفَتْ أبدانُهُم عن بعضِ ذلك؛
قامتِ النِّياتُ نائبةً، وهم لها سابقونَ. وأكملُ أحوالِهِم: إعراضُهُم عن أعمالِهِم؛ فهم
يحتقرونَهَا مع التَّمامِ، ويعتذرونَ من التقصيرِ.

ومنهم مَنْ يزيدُ على هذا، فيتشاعَلُ بالشُّكْرِ على التوفيقِ لذلك.
ومنهم مَنْ لا يرى ما عَمِلَ أَصْلًا؛ لأنَّه يرى نفسَه وعَمَلَه لسيِّدهِ.
وبالعكسِ من المذكورِ من أربابِ الاجتهادِ حالِ أهلِ الكَسَلِ والشَّرِّ والشَّهواتِ؛
فلَئِنْ التَّدَوَّا بعاجِلِ الراحةِ؛ لَقَدْ أوجِبَتْ ما يزيدُ على كلِّ تعبٍ من الأسفِ والحسرةِ.
وَمَنْ تَلَمَّحَ صَبَرَ يوسف عليه السلامُ وَعَجَلَةً ماعزٍ؛ بَانَ لَهُ الفرقُ، وَفَهُمُ الرِّبْحُ مِنْ
الخسرانِ؟!!

ولقد تَأَمَّلْتُ نَيْلَ الدَّرِّ مِنَ البحرِ، فرَأَيْتُهُ بعدَ معاناةِ الشَّدائِدِ.
وَمَنْ تَفَكَّرَ فيها ذَكَرْتُهُ مَثَلًا؛ بَانَ لَهُ أُمَثَالٌ.
فالْمَوْفِقُ مَنْ تَلَمَّحَ قِصَرَ المَوْسِمِ المَعْمُولِ فيه، وامتدادَ زمانِ الجزاءِ الذي لا آخِرَ له،
فانتهَبَ حتَّى اللَّحْظَةَ، وزاحَمَ كُلَّ فضيلةٍ؛ فَإِنَّمَا إِذَا فاتَتْ؛ فلا وَجَهَ لاسْتِدْرَاكِهَا.
أوليسَ في الحديثِ: «يَقَالُ لِلرَّجُلِ: اقْرَأْ وارْقُ؛ فَمِنْ ذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا»^(١).
فلو أَنَّ الفِكَرَ عَمِلَ في هذا حَقَّ العَمَلِ؛ حَفِظَ القرآنُ عاجِلًا.

○○○○○

الإيمانُ يَتَبَيَّنُ عندَ البلاءِ

ليسَ المؤمنُ بالذي يُوَدِّي فرائضَ العباداتِ صُورَةً ويتجنَّبُ المحظوراتِ
فحسبًا!، إِنَّمَا المؤمنُ هو الكاملُ للإيمانِ، لا يَخْتَلِجُ في قلبِهِ اعتراضٌ، ولا يُسَاكِنُ نفسَهُ فيها
يجري وسوسةٌ، وكلَّمَا اشتَدَّ البلاءُ عليه؛ زادَ إِيثارُهُ وقُوَّيَ تسليمُهُ، وقد يَدْعُو فلا يرى

(١) أحمد (٦٧٦٠)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤).

للإجابة أثرًا؛ وسرّه لا يتغيّر؛ لأنّه يعلم أنّه مملوك، وله مالك يتصرّف بمقتضى إرادته.
فإن اختلج في قلبه اعتراض؛ خرّج من مقام العبوديّة إلى مقام المناظرة؛ كما جرى
لإبليس.

والإيمان القويّ يبيّن أثره عند قوة البلاء.

فأما إذا رأينا مثل يحيى بن زكريا؛ تسلّط عليه فاجر، فيأمرّ بذبحه، فيذبح؛ وربما
اختلج في الطبع أن يقول: فهلاّ ردّ عنه من جعله نبيّا؟ وكذلك كلّ تسلّط من الكفار على
الأنبياء والمؤمنين؛ وما وقّع ردّ عنهم!

وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليهما السلام، فبكى يعقوب ثمانين سنة، ثم لم
يأس، فلما ذهب ابنه الآخر؛ قال: ﴿عسى الله أن يأتيّني بهم جميعاً﴾ [يوسف: ٨٣].
وقد دعا موسى عليه السلام على فرعون، فأجيب بعد أربعين سنة.
وكم من بليّة نزلت بمعظم القدر؛ فما زاده ذلك إلّا تسليماً ورضى!
فهناك يبيّن معنى قوله: ﴿رضى الله عنهم﴾ [البقرة: ٨]، وها هنا يظهر قدر قوة الإيمان
لا في ركعات.

قال الحسن البصري: استوى الناس في العافية؛ فإذا نزل البلاء؛ تباينوا.



تذكّر نعيم الروح

ما زلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الأهل والأولاد، ولا
أتخيل إلّا بلى الأبدان في القبور، فأحزن لذلك.
فمرّت بي أحاديث قد كانت تمرّ بي ولا أتفكّر فيها، منها قول النبي ﷺ: «إنّما
نفس المؤمن طائر تعلّق في شجر الجنة، حتّى يرده الله عزّ وجلّ إلى جسده يوم يبعثه»^(١).
فرايت أنّ الرحيل إلى الراحة، وأنّ هذا البدن ليس بشيء؛ لأنّه مركّب تفكّك
وفسد، وسيبنى جديداً يوم البعث؛ فلا ينبغي أن يتفكّر في بلاءه، ولتسكن النفس إلى أنّ
الأرواح انتقلت إلى راحة، فلا يبقى كبير حزن، وأنّ اللقاء للأحباب عن قرب.

(١) أحد (١٥٣٥٠)؛ وابن ماجه (٤٢٧١).

وإنَّما يَبْقَى الأَسْفُ لتعلُّقِ الخَلْقِ بالصُّورِ، فلا يرى الإنسانُ إلَّا جَسَدًا مُسْتَحْسَنًا قد نَقِضَ، فيحزنُ لِنَقْضِهِ.

والجسدُ ليس هو الأَدَمِيّ، وإنَّما هو مَرْكَبُهُ؛ فالأرواحُ لا ينالها البِلَى، والأبدانُ ليست بشيءٍ.

واعْتَبِرْ هذا بما إذا قَلَعْتَ ضَرْسَكَ، ورميته في حُفْرَةٍ؛ فهل عندكَ خَبَرٌ مما يَلْقَى في مُدَّةِ حَيَاتِكَ؟! فَحُكْمُ الأبدانِ حَكْمُ ذَلِكَ الضَّرْسِ؛ لا تدري النفسُ ما يَلْقَى. ولا ينبغي أنْ تَتَغَمَّ بتمزيقِ جسدِ المحبوبِ وبِلاه، واذْكُرْ تَنَعُّمَ الأرواحِ وقُرْبَ التجديدِ وعاجِلَ اللقاءِ؛ فَإِنَّ الفِكرَ في تحقيقِ هذا يهْوُنُ الحزنَ ويسهِّلُ الأمرَ.

○ ○ ○ ○ ○

لا تجزع من البلاءِ

لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يَتَزَعَّجَ من مرضٍ أو نزولِ موتٍ، وإنْ كَانَ الطَّبْعُ لا يُمَلِّكُ؛ إلَّا أَنَّهُ ينبغي له التَّصَبُّرُ مهما أمكنَ: إمَّا لطلبِ الأجرِ بما يُعاني، أو لبيانِ أثرِ الرِّضَى بالقضاءِ، وما هي إلَّا لحظاتٌ ثم تَنقَضِي.

وليتَفَكَّرِ المُعَاوَى من المرضِ في الساعاتِ التي كان يَفْتَلِقُ فيها: أين هي في زمانٍ العافية؟! ذَهَبَ البلاءُ وحَصَلَ الثوابُ؛ كما تذهبُ حلاوةُ اللَّذاتِ المحرَّمةِ ويبقى الوزرُ، ويمضي زمانُ التَّسَخُّطِ بالأقدارِ ويبقى العتابُ.

وهل الموتُ إلَّا آلامٌ تَزِيدُ، فتعجزُّ النفسُ عن حَمْلِها، فتذهبُ؟!!

فليتَصَوَّرِ المريضُ وجودَ الراحةِ بعدَ رحيلِ النفسِ وقد هَانَ ما يَلْقَى؛ كما يَتَصَوَّرُ العافيةَ بعدَ شُرْبِ الشَّرْبَةِ المَرَّةِ.

ولا ينبغي أنْ يَقَعَ جَرَعٌ بِذِكْرِ البِلَى؛ فَإِنَّ ذلك شأنُ المركَّبِ، أما الراكبُ؛ ففي الجنةِ أو النارِ، وإنَّما ينبغي أنْ يَقَعَ الاهتمامُ الكليُّ بما يَزِيدُ في درجاتِ الفضائلِ قبلَ نُزُولِ المعوِّقِ عنها؛ فالسعيدُ مَنْ وُفِّقَ لاغتنامِ العافيةِ، ثم يختارُ تحصيلَ الأفضلِ فالأفضلِ في زمنِ الاغتنامِ، وليَعْلَمْ أنَّ زيادةَ المنازلِ في الجنةِ على قَدَرِ التَّزْيِيدِ من الفضائلِ ها هنا،

والعُمُرُ قصيرٌ، والفضائلُ كثيرةٌ؛ فليبالغ في البِدَارِ؛ فيا طوَلَ راحةِ التَّعبِ! ويا فرحةَ المغمومِ! ويا سرورَ المحزونِ! ومتى تخاليلُ دوامِ اللَذَّةِ في الجنةِ، من غيرِ منغصٍ ولا قاطعٍ؛ هان عليه كلُّ بلاءٍ وشِدَّةٍ.

○○○○○

احذَرُ مراءاةَ الخلقِ

ما يكادُ يحبُّ الاجتماعَ بالناسِ إلَّا فارغٌ؛ لأنَّ المشغولَ القلبَ بالحقِّ يَفِرُّ من الخلقِ، ومتى تمكَّنَ فراغُ القلبِ من معرفةِ الحقِّ؛ امتلأ بالخلقِ، فصارَ يعملُ لهم ومن أجلِهِم، ويَهْلِكُ بالرَّياءِ، ولا يعلمُ.

وأعوذُ بالله من رؤيةِ النفسِ ورؤيةِ الخلقِ: فإنَّ مَنْ رأى نفسه؛ تَكَبَّرَ، والمتكَبِّرُ أحمقٌ؛ لأنَّه ما من شيءٍ يَتَكَبَّرُ به إلَّا ولغيره أكثرُ منه. ومن رأى الخلقَ؛ عَبَدَهُم وهو لا يعلمُ! فأما العاملُ لله سبحانه وتعالى؛ فهو بعيدٌ من الخلقِ؛ فإنَّ تَقَرَّبُوا إليه؛ سَتَرَ حاله بها يوجبُ بُعْدَهُم عنه.

وقد رأينا مَنْ يُرائي ولا يذري، فيمتنعُ من المشي في السوقِ، ومن زيارةِ الإخوانِ، ومن أن يشتري شيئاً بنفسه! وتوهَّمَهُ نفسه أني أكرهُ مخالطةَ السُّوقَةِ!! وإنَّما هذا يربِّي جَاهًا بين العلماءِ؛ إذ لو خالَطَهُمْ؛ لامتَحِيَ^(١) جَاهُهُ، وبَطَلَ تَقْيِيلُ يَدِهِ!

وقد كان بشرٌ الحافي يجلسُ في مجلسٍ عند العطارِ. وأبلغُ من هذا كلُّهُ أن نبيَّنَا ﷺ كان يشتري حاجتَهُ ويحملُها. وخرَجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ وهو أميرُ المؤمنينَ إلى السوقِ فاشتري ثوبًا. وقد كان طلحةُ بنُ مصرفٍ قارئَ أهلِ الكوفةِ، فلما كَثُرَ الناسُ عليه؛ مَسَى إلى الأعمشِ، فَقَرَأَ عليه، فمالَ الناسُ إلى الأعمشِ، وتَرَكُوا طَلْحَةَ. فأما ضِدُّ هذه الحالِ؛ فحالةُ عابِدٍ للخلقِ مُلبَّسٍ. وقد عَمَّ هذا جمهورُ الخلقِ، حاشا السَّلفِ.

○○○○○

(١) امتحى: ذهب أثره.

من أقبح المعاصي

كل المعاصي قبيحة، وبعضها أقبح من بعض:
فإن الزنى من أقبح الذنوب؛ فإنه يُفْسِدُ الْفُرْشَ وَيُعَيِّرُ الْأَنْسَابَ.

وهو بالجارية أقبح: فقد رُوِيَ في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود؛ قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ ذنبٍ أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(١). وقد روى البخاري في «تاريخه» من حديث المقداد بن الأسود عن النبي ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَسْرُ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، وَلَأَنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتٍ أَسْرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جَارِهِ»^(٢). وإنما كَانَ هَذَا؛ لَأَنَّهُ يَضُمُّ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا لانتهاك حَقِّ الْجَارِ.

ومن أقبح الذنوب أَنْ يَزْنِيَ الشَّيْخُ؛ ففي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يُغْضُ الشَّيْخَ الزَّانِيَ»^(٣)؛ لَأَنَّ شَهْوَةَ الطَّبَعِ قَدْ مَاتَتْ، وَلَيْسَ فِيهَا قُوَّةٌ تَغْلِبُ؛ فَهُوَ يُحَرِّكُهَا وَيَبَالِغُ، فَكَانَتْ مَعْصِيَتُهُ عِنَادًا.

ومن المعاصي التي تُشْبِهُ الْمَعَانِدَةَ لُبْسُ الرَّجُلِ الْحَرِيرَ وَالذَّهَبَ، خُصُوصًا خَاتَمَ الذَّهَبِ الَّذِي يَتَحَلَّى بِهِ الشَّيْخُ، وَإِنَّهُ مِنْ أَتْرَدِ الْأَفْعَالِ وَأَقْبَحِ الْخَطَايَا.
ومن هذا الفن الرِّبَاءُ وَالتَّخَاشُعُ وَإِظْهَارُ التَّزَهُدِ لِلخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ كَالْعِبَادَةِ لَهُمْ؛ مَعَ إِهْمَالِ جَانِبِ الْحَقِّ عِزًّا وَجَلًّا.

وكذلك المعاملة بِالرِّبَا الصَّرِيحِ، خُصُوصًا مِنَ الْغِنَى الْكَثِيرِ الْمَالِ.
ومن أقبح الأشياءِ أَنْ يَطُولَ الْمَرَضُ بِالشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَلَا يَتُوبَ مِنْ ذَنْبٍ؛ وَلَا يَعْتَذِرَ مِنْ زَلَّةٍ، وَلَا يَقْضِي دَيْنًا، وَلَا يُوصِي بِإِخْرَاجِ حَقِّ عَلَيْهِ!
ومن قبائح الذنوب أَنْ يَتُوبَ السَّارِقُ أَوْ الظَّالِمُ وَلَا يَرُدَّ الْمَظْلَمَ. وَالْمُفَرِّطُ فِي الزَّكَاةِ أَوْ فِي الصَّلَاةِ وَلَا يَقْضِي.

(١) البخاري (٤٤٧٧)؛ ومسلم (٨٦).

(٢) أحمد (٢٣٣٤٢)؛ والتاريخ الكبير (٥٤/٨).

(٣) أحمد (٢٠٨٤٨)؛ والترمذي (٢٥٦٨)؛ والنسائي (٢٥٧٠).

وَمِنْ أَقْبَحِهَا أَنْ يَحْنَثَ ^(١) فِي يَمِينِ طَلَاقِهِ ثُمَّ يُقِيمَ مَعَ الْمَرْأَةِ!
وَقَسَّ عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ؛ فَاَلْمَعَاصِي كَثِيرَةٌ، وَأَقْبَحُهَا لَا يَحْفَى.
وهذه الْمُسْتَقْبَحَاتُ - فضلاً عن القبائح - تُشْبِهُ الْعِنَادَ لِلْأَمْرِ، فَيَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا
اللعنَ ودوامَ العقوبة.

وَإِنِّي لَأَرَى شُرْبَ الْخَمْرِ مِنْ ذَلِكَ الْجَنْسِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُشْتَهَاءَةً لذَاتِهَا وَلَا لِرِيحِهَا
وَلَا لَطْعِمِهَا - فِيمَا يُذَكَّرُ -؛ إِنَّمَا لَذَّتْهَا - فِيمَا يُقَالُ - بَعْدَ تَجَرُّعِ مَرَارَتِهَا؛ فَالْإِقْدَامُ عَلَى مَا لَا
يَدْعُو إِلَيْهِ الطَّبْعُ - إِلَى أَنْ يَصِلَ التَّنَاوُلُ إِلَى اللَّذَّةِ - مُعَانَدَةٌ.
نَسَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيهَانًا يُجْزِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَالِفَتِهِ، وَتَوْفِيقًا لِمَا يُرْضِيهِ؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ.

○ ○ ○ ○ ○

كَيْفَ نَتَعَاطَلُ مَعَ غَاضِبٍ؟

مَتَى رَأَيْتَ صَاحِبَكَ قَدْ غَضِبَ، وَأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بِهَا لَا يَصْلُحُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْقِدَ عَلَى مَا
يَقُولُهُ خِنْصَرًا، وَلَا أَنْ تَتَوَاضَعُ بِهِ؛ فَإِنَّ حَالَهُ حَالُ السَّكَرَانِ، لَا يَذَرِي مَا يَجْرِي. بَلِ اضْبِرْ
لِفُورَتِهِ، وَلَا تَعَوَّلْ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ غَلَبَهُ، وَالطَّبْعَ قَدْ هَاجَ، وَالْعَقْلَ قَدْ اسْتَرَرَ.
وَمَتَى أَخَذْتَ فِي نَفْسِكَ عَلَيْهِ، أَوْ أَجَبْتَهُ بِمُقْتَضَى فَعْلِهِ؛ كُنْتَ كَعَاقِلٍ وَاجِهَةٍ مُجَنُونًا،
أَوْ كَمُفِيقٍ عَاتَبَ مَغْمَى عَلَيْهِ؛ فَالذَّنْبُ لَكَ.

بَلِ انظُرْ بَعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَتَلَمَّحْ تَصْرِيفَ الْقَدْرِ لَهُ، وَتَفَرَّجْ فِي لَعِبِ الطَّبْعِ بِهِ، وَاعْلَمْ
أَنَّهُ إِذَا انْتَبَهَ؛ نَدِمَ عَلَى مَا جَرَى، وَعَرَفَ لَكَ فَضْلَ الصَّبْرِ.

وَأَقَلُّ الْأَقْسَامِ أَنْ تُسَلِّمَهُ فِيمَا يَفْعَلُ فِي غَضَبِهِ إِلَى مَا يَسْتَرِيحُ بِهِ.
وهذه الْحَالَةُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا الْوَلَدُ عِنْدَ غَضَبِ الْوَالِدِ، وَالزَّوْجَةُ عِنْدَ غَضَبِ
الزَّوْجِ؛ فَتَرْكُهُ يَشْتَفِي ^(٢) بِمَا يَقُولُ، وَلَا تَعَوَّلْ عَلَى ذَلِكَ؛ فَسَيَعُودُ نَادِمًا مُعْتَذِرًا.
وَمَتَى قُوبِلَ عَلَى حَالَتِهِ وَمَقَالَتِهِ؛ صَارَتْ الْعَدَاوَةُ مُتِمَّكَّنَةً، وَجَازَى فِي الْإِفَاقَةِ عَلَى مَا
فُعِلَ فِي حَقِّهِ وَقَتَ السُّكْرِ.

(١) يحنث في يمينه: لم يبر فيها.

(٢) يشفي: يذهب غيظه.

وأكثرُ الناس على غيرِ هذه الطريق: متى رأوا غضبانَ؛ قَابَلُوهُ بما يقولُ ويعملُ، وهذا على غيرِ مُقتضى الحِكْمَةِ، بل الحِكْمَةُ ما ذَكَرْتُهُ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [المنكوت: ٤٣].

○ ○ ○ ○ ○

كن بعيد النظر

كُلُّ مَنْ لَا يَتَلَمَّحُ العَوَاقِبَ وَلَا يَسْتَعِدُّ لِمَا يَجُوزُ وَقُوعُهُ؛ فَلَيْسَ بِكَامِلٍ الْعَقْلِ! واعتبرْ هذا في جميع الأحوال، مثلُ أَنْ يَغْتَرَّ بِشَبَابِهِ، ويدوم على المعاصي، ويُسوِّفَ بالتوبة؛ فربما أُخِذَ بَغْتَةً ولم يَتَلَمَّحْ بعضَ ما أَمَلَ.

وكذلك إذا سَوِّفَ بالعملِ أو بحِفْظِ العلم؛ فَإِنَّ الزمانَ يَنْقُضِي بالتسويةِ، ويفوتُ المقصودُ. وربما عَزَمَ على فعلٍ خيرٍ أو وَقَفَ شيءٌ من ماله، فسَوِّفَ، فَبُغِتَ. فالعاقلُ مَنْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ في تَصْوِيرِ ما يَجُوزُ وَقُوعُهُ، وعَمِلَ بِمُقْتَضَى ذلك؛ فَإِنْ امْتَدَّ الْأَجَلُ؛ لَمْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ وَقَعَ السَّخُوفُ؛ كَانَ مُحْتَزًّا.

ومما يَتَعَلَّقُ بِالْذُّنُوبِ: أَنْ يَمِيلَ مع السُّلْطَانِ، ويسِيءَ إلى بعضِ حواشيئه؛ ثَقَّةً بِقُرْبِهِ مِنْهُ، فربما تَغَيَّرَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ، فارتفعَ عَدُوُّهُ، فانتقمَ مِنْهُ. وقد يُعَادِي بعضُ الْأَصْدِقَاءِ وَلَا يَبَالِي بِهِ لِأَنَّهُ دُونَهُ في الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ؛ فربما صَعِدَتْ رُتَبُهُ ذَلِكَ، فاستوفى ما أَسْلَفَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَبِيحِ وَزَادَ.

○ ○ ○ ○ ○

الاستعداد ليوم الرحيل

مَنْ عَلِمَ قُرْبَ الرَّحِيلِ عن مَكَّةَ؛ اسْتَكْتَرَّ مِنَ الطَّوَافِ، خُصُوصًا إِنْ كَانَ لَا يُؤْمَلُ الْعُودَ؛ لِكِبَرِ سِنِّهِ، وَضَعْفِ قُوَّتِهِ.

فكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِمَنْ قَارَبَهُ سَاحِلُ الْأَجْلِ، بَعْلُو سِنِّهِ أَنْ يَبَادِرَ اللَّحْظَاتِ وَيَسْتَعِزَّ بِهَا بِمَا يَصْلُحُ لَهُ؛ فَقَدْ كَانَ فِي قَوْسِ الْأَجْلِ مَنَزْعٌ^(١) زَمَانَ الشَّبَابِ، وَاسْتَرْخَى الْوَتَرُ فِي الْمَشِيبِ عَنْ سِيَةِ الْقَوْسِ^(٢)، فَانْحَدَرَ إِلَى الْقَابِ^(٣)، وَضَعُفَتِ الْقُوَى، وَمَا بَقِيَ إِلَّا

(١) منزع: السهم البعيد الرمي.

(٢) سية القوس: ما عطف من طرفيه.

(٣) القاب: ما بين مقبض القوس والسيه.

الاستسلام لمحارب التلّف.

فالبدار البدار إلى التنظيف؛ ليكون القدوم على طهارة.
وأَيُّ عيشٍ في الدنيا يَطِيبُ لمن أَيَّامُهُ السليمةُ تقرُّبُهُ إلى الهلاكِ، وصُعودُ عُمرِهِ
نزولٌ عن الحياة، وطولُ بقائه نَقْصُ مَدَى المدةِ؟!
فليتفكّر فيما بين يديه، وهو أهمُّ مما ذكرناه.
أليس في «الصحيح»: «ما منكم أحدٌ إلّا ويُعرَضُ عليه مَقْعَدُهُ بالغداة والعشي من
الجنة أو النار، فيقال: هذا مَقْعَدُكَ، حتّى يَبْعَثَكَ اللهُ»^(١)؟!
فوا أسفاً لمهدّدٍ كم يُقْتَلُ قَبْلَ القَتْلِ! ويا طيبَ عيشٍ لموعودٍ بأزيدِ المُنَى!
وَلْيَعْلَمْ مَنْ شارَفَ السبعينَ أَنَّ النَّفْسَ أَثِينٌ!



إمام الرسل وسيد الراضين ﷺ

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الرُّضَى عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَفْعَالِهِ، وَأَنْ يَدْرِيَ مِنْ أَيْنَ
يَنْشَأُ الرُّضَى؛ فَلْيَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.
فإنّه لما تَكَمَّلَتْ معرفته بالخالقِ سُبْحَانَهُ؛ رَأَى أَنَّ الخالقَ مالِكٌ، ولِلْمَالِكِ التَّصَرُّفُ
فِي مَمْلُوكِهِ، وَرَأَهُ حَكِيمًا لَا يَصْنَعُ شَيْئًا عَبَثًا، فَسَلَّمَ تَسْلِيمَ مَمْلُوكٍ لِحَكِيمٍ، فَكَانَتْ الْعَجَائِبُ
تَجْرِي عَلَيْهِ، وَلَا يَوْجَدُ مِنْهُ تَغَيُّرٌ، وَلَا مِنْ الطَّبَعِ تَأْفُفٌ، وَلَا يَقُولُ بِلِسَانِ الْحَالِ: لَوْ كَانَ
كَذَا! بَلْ يَثْبُتُ لِلْأَقْدَارِ ثُبُوتُ الْجَبَلِ لِعَوَاصِفِ الرِّيَّاحِ.
هَذَا سَيِّدُ الرُّسُلِ ﷺ بُعِثَ إِلَى الْخَلْقِ وَحْدَهُ، وَالْكَفَرُ قَدْ مَلَأَ الْآفَاقَ، فَجَعَلَ يَفِرُّ مِنْ
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَاسْتَرَعَ فِي دَارِ الْحَيْزَرَانِ^(٢)، وَهُمْ يَضْرِبُونَهُ إِذَا خَرَجَ، وَيُدْمُونَ عَقِبَهُ،
وَأُلْقِيَ السَّلَى^(٣) عَلَى ظَهْرِهِ^(٤)، وَهُوَ سَاكِتٌ سَاكِنٌ... وَيَخْرُجُ كُلَّ مَوْسَمٍ فَيَقُولُ: «مَنْ

(١) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) يعني دار الأرقم بن أبي الأرقم، وقد آلت الدار إلى الحيزران - زوجة المهدي الخليفة العباسي - فيما بعد.

(٣) السِّلَى: غشاء رقيق يحيط بالجنين في بطن أمه ويخرج معه عند الولادة، والمؤلف يشير إلى إلقاء المشركين سلا الجزور على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد.

(٤) البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

يُؤويني؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟»^(١)... ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْعَوْدِ إِلَّا فِي جَوَارٍ كَافِرٍ.
وَلَمْ يَوْجَدْ مِنَ الطَّبَعِ تَأَقُّفٌ، وَلَا مِنَ الْبَاطِنِ اعْتِرَاضٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ؛ لَقَالَ: يَا
رَبِّ! أَنْتَ مَالِكُ الْخَلْقِ، وَأَقْدَرُ عَلَى النَّصْرِ؛ فَلَمْ أَذَلُّ؟! كَمَا قَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ
صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟! فَلِمَ تُعْطِي الدَّيْنَةَ فِي دِينِنَا؟! وَلَمَّا قَالَ هَذَا؛ قَالَ لَهُ
الرَّسُولُ ﷺ: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»^(٢). فَجَمَعَتِ الْكَلِمَتَانِ الْأَصْلَيْنِ اللَّذَيْنِ
ذَكَرْنَاهُمَا؛ فَقَوْلُهُ: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ»: إِقْرَارٌ بِالْمَلِكِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا مَمْلُوكٌ يَفْعَلُ بِي مَا يَشَاءُ.
وقوله: «لَنْ يُضَيِّعَنِي»: بَيَانٌ حَكَمَتِهِ وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا.

ثُمَّ يُبْتَلَى بِالْجُوعِ، فَيُسَدُّ الْحَجَرَ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.
وَتُقْتَلُ أَصْحَابُهُ، وَيُسَجُّ وَجْهُهُ، وَتُكْسَرُ رِبَاعِيَّتُهُ^(٣)، وَيُمَثَّلُ بَعْمُهُ.. وَهُوَ سَاكِتٌ.
ثُمَّ يُرْزَقُ ابْنًا، وَيُسَلَّبُ مِنْهُ، فَيَتَعَلَّلُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، فَيُخْبَرُ بِمَا سَيَجْرِي عَلَيْهِمَا.
وَيَسْكُنُ بِالطَّبَعِ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَيُنْغَصُّ عَيْشُهُ بِقَذْفِهَا.
وَيَبَالِغُ فِي إِظْهَارِ الْمُعْجَزَاتِ، فَيُقَامُ فِي وَجْهِهِ مُسَيْلَمَةُ وَالْعَنْسِيُّ وَابْنُ صَيَادٍ.
وَيُقِيمُ نَامُوسَ الْأَمَانَةِ وَالصَّدَقِ، فَيَقَالُ: كَذَّابٌ! سَاحِرٌ!
ثُمَّ يَغْلِقُهُ الْمَرَضُ فَيُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ وَهُوَ سَاكِنٌ سَاكِتٌ.
فَإِنْ أَخْبَرَ بِحَالِهِ؛ فَلْيَعْلَمْ الصَّبْرَ.
ثُمَّ يُسَدَّدُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ، فَيُسَلَّبُ رُوحَهُ الشَّرِيفَةَ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ فِي كِسَاءٍ مُلَبَّدٍ وَإِزَارٍ
غَلِيظٍ، هَذَا شَيْءٌ مَا قَدَّرَ عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَلَوْ ابْتُلِيَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ؛ مَا صَبَرَتْ.

○ ○ ○ ○ ○

(١) أحمد (١٤٠٤٧).

(٢) البخاري (٣١٨٢)؛ ومسلم (١٧٨٥).

(٣) رباعيته: الرباعية سنّ بين مقدم الأسنان والناث.

زوجتك أجمل!

أكثر شهوات الحسّ النساء.

وقد يرى الإنسان امرأة في ثيابها، فيتخايلُ له أنّها أحسنُ من زوجته، أو يتصوّر يفكره المستحسنات، وفكره لا ينظرُ إلا إلى الحسن من المرأة، فيسعى في التزوُّج والتسرّي؛ فإذا حصلَ له مراده؛ لم يزلَ ينظرُ في عيوبِ الحاصلِ التي ما كان يتفكّرُ فيها، فيمَلُّ، ويطلبُ شيئاً آخر، ولا يدري أن حصولَ أغراضه في الظاهرِ ربّما اشتملَ على محنٍ؛ منها أن تكونَ الثانية لا دينَ لها أو لا عقلَ، أو لا محبةَ لها أو لا تدبيرَ، فيقوّت أكثرَ ممّا حصلَ!

وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفواحش؛ لأنّهم يجالسون المرأة حال استتارِ عيوبها عنهم وظهورِ محاسنها، فتلدّهم تلك الساعة، ثم ينتقلون إلى أخرى! فليعلم العاقل أن لا سبيلَ إلى حصولِ مرادٍ تامٍّ كما يُريدُ، ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وما عيبَ نساء الدنيا بأحسنَ من قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

وذو الأنفة يأنفُ من الوسخِ صورةً وعيبِ الخلقِ معنى؛ فليَنعَ بما باطنه الدينُ وظاهره السرّ والقناعة؛ فإنه يعيشُ مرفقاً السرّ طيب القلب. ومتى استكثر؛ فإنما يستكثرُ من شغلِ قلبه ورقّة دينه.



فضل علم الحديث والمحدثين

علمُ الحديث هو الشريعة؛ لأنّه مُبينٌ للقرآن، وموضحٌ للحلال والحرام، وكاشفٌ عن سيرة رسول الله ﷺ وسير أصحابه.

وقد مرّ جوه بالكذب، وأدخلوا في المنقولات كلّ قبيح. فإذا وفق الزاهد والواعظ؛ لم يذكرا إلا ما شهدا بصحّته. وإن حُرِمَا التوفيق؛ عمِلَ الزاهد بكلّ حديث يسمعه؛ لحسن ظنه بالرواة! وقال الواعظ كلّ شيء يراه؛ لجهله

بالتصحيح! فَفَسَدَتْ أحوالُ الزَّاهِدِ، وانحرفَ عن جادةِ الهدى، وهو لا يعلمُ.
فقدُ بَنَوْا على فسادٍ، فَفَسَدَتْ أحوالُ الواعظِ والموعوظِ؛ لأنَّه يَنبني كلامه على
أشياءَ فاسدةٍ ومُحالاتٍ.

ولقد كان جماعةٌ من المتزهدينَ يَعْمَلُونَ على أحاديثٍ ومنقولاتٍ لا تَصِحُّ، فيضِيعُ
زمانهم في غير المشروعِ، ثم يُنْكِرُونَ على العلماءِ استعمالهم للمباحاتِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّجَفُّفَ
هو الدينُ!

وكذلك الوعَّاظُ يُحَدِّثُونَ الناسَ بما لا يَصِحُّ عن الرسولِ ﷺ ولا أصحابِهِ؛ فقد
صارَ المحالُ عندهم شريعةً.
فسبحانَ من حَفِظَ هذه الشريعةَ بأخبارٍ أخيارٍ، يَنْقُوهَا عنها تحريفَ الغالينَ،
وانتحالَ المبطلينَ!



حقيقةُ عبيدِ الشهواتِ

بَلَّغَنِي عن بعضِ فُسَّاقِ القُدماءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ما أرى العيشَ غيرَ أنْ تُتَّبَعَ النفسُ
هواها؛ فمخطئاً أو مُصِيباً!

فتدبَّرتُ حالَ هذا، وإذا به ميَّتُ النفسِ، ليس له أنْفَةٌ على عِرْضِهِ، ولا خوفُ عارٍ!
ومثُلُ هذا ليس في مِسالَخٍ^(١) الآدميينَ!

فإنَّ الإنسانَ قد يُقَدِّمُ على القَتْلِ لئلا يُقالَ: جبانٌ. ويَحْمِلُ الأثقالَ لِيُقالَ: ما قَصَّرَ.
ويخافُ العارَ، فيَصْبِرُ على كُلِّ آفةٍ مِنَ الفقرِ، وهو يَسْتُرُ ذلكَ، حتى لا يُرى بعينٍ ناقصةٍ.
حتى إنَّ الجاهلَ إذا قِيلَ لَهُ: يا جاهلُ! غَضِبَ.

فأما مَنْ لا يُبالي أن يُرى سكراناً، ولا يَهْمُهُ إنْ شَهِرَ بين الناسِ، ولا يُولِمُهُ ذِكْرُ
الناسِ له بالسَّوءِ؛ فذاك في عِدادِ البهائمِ.

وهذا الذي يريدُ أنْ يُتَّبَعَ النفسَ هواها؛ لا يَلْتَذُّ؛ إِلَّا أَلَّا يَخافَ عَتّاً ولا لومًا، ولا
يكونُ له عِرْضٌ يَحْذَرُ عليه؛ فهو بهيمةٌ في مِسالَخِ إنسانٍ.

وَالَا؛ فَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَأَخَذَ عَقِيبَ ذَلِكَ، وَضُرِبَ، وَشَاعَ فِي
النَّاسِ مَا قَدْ فُعِلَ بِهِ؟! أَمَا يَفِي ذَلِكَ بِاللَّذَّةِ؟! لَا؛ بَلْ يَرْبُو^(١) عَلَيْهَا أَضْعَافًا.
وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ سَاكَنَ الْكَسَلَ: إِذَا رَأَى أَقْرَانَهُ قَدْ بَرَزُوا فِي الْعِلْمِ وَهُوَ جَاهِلٌ، أَوْ
اسْتَعْنَوْا بِالتَّجَارَةِ وَهُوَ فَقِيرٌ؟! فَهَلْ يَبْقَى لِلتَّلَذُّذِ بِالْكَسَلِ وَالرَّاحَةِ مَعْنَى؟! وَلَوْ تَفَكَّرَ
الزَّانِي فِي الْأُحْدُوثَةِ عَنْهُ، أَوْ تَصَوَّرَ أَخَذَ الْحَدِّ مِنْهُ؛ لَكَفَّ الْكَفَّ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَرَى لَذَّةَ حَاضِرَةٍ
كَأَنَّهَا لَمْعُ بَرْقٍ، وَيَا شَوْمَ مَا أَعْقَبَتْ مِنْ طُولِ الْأَسَى!
هَذَا كُلُّهُ فِي الْعَاجِلِ، فَأَمَّا الْآجِلُ؛ فَمَنْعَصَةُ الْعَذَابِ دَائِمَةٌ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْفَةً مِنَ الرِّذَائِلِ، وَهِمَّةً فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

○○○○○

الذَّنْبُ لَا يُنْسَى

قَدْ تَبَغَّتْ الْعُقُوبَاتُ، وَقَدْ يُوَخَّرُهَا الْحِلْمُ.
وَالْعَاقِلُ مَنْ إِذَا فَعَلَ خَطِيئَةً؛ بَادَرَهَا بِالتَّوْبَةِ.
فَكَمْ مَغْرُورٍ بِإِمْهَالِ الْعَصَاةِ لَمْ يُمَهِّلْ!
قَالَ عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: كَانَ عِنْدَنَا بِخُرَاسَانَ رَجُلٌ كَتَبَ مُضْحَفًا فِي ثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: فِي كَمْ كَتَبْتَ هَذَا؟ فَأَوْمَأَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى وَالْإِبْهَامِ، وَقَالَ: فِي
ثَلَاثٍ، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فَجَفَّتْ أَصَابِعُهُ الثَّلَاثُ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا فِيمَا بَعْدُ.
وَخَطَرَ لِبَعْضِ الْفُصَّحَاءِ أَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ الْقُرْآنِ! فَصَعِدَ إِلَى غُرْفَةٍ، فَانْفَرَدَ فِيهَا،
وَقَالَ: أُمْهِلُونِي ثَلَاثًا! فَصَعِدُوا إِلَيْهِ بَعْدَ الثَّلَاثِ، وَبَدَأَ يَقُولُ: قَدْ بَسَّتْ عَلَى الْقَلَمِ، وَهُوَ مَيِّتٌ.
وَقَدْ تَتَأَخَّرُ الْعُقُوبَةُ وَتَأْتِي فِي آخِرِ الْعُمُرِ؛ فَيَا طَوْلَ التَّعْثِيرِ مَعَ كَثَرِ السَّنِّ لِلذُّنُوبِ
كَانَتْ فِي الشَّبَابِ!
فَالْحَذَرُ الْحَذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الْخَطَايَا، وَالْبِدَارُ الْبِدَارُ إِلَى مَحْوِهَا بِالْإِنَابَةِ؛ فَلَهَا تَأْثِيرَاتٌ
قَبِيحَةٌ إِنْ أَسْرَعَتْ، وَإِلَّا اجْتَمَعَتْ وَجَاءَتْ.

(١) يربو: يزيده.

ضلال أهل الجاهلية

طال تعجبي من أقوام لهم أنفة، وعندهم كبر زائد في الحد!
خصوصاً العرب الذين من كلمة ينفرون ويحاربون ويرضون بالقتل! حتى إن قوماً منهم أدرکوا الإسلام، فقالوا: كيف تركع ونسجد فتعلونا أستاذنا؟^(١)

ومع هذه الأنفة؛ يذلون لمن هم خير منه؛ هذا يعبد حجراً! وهذا يعبد خشبة! وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر!

وإن هؤلاء لأخس من إبليس؛ فإن إبليس أنف - لادعائه الكمال - أن يسجد لناقص، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [ص: ٧٦]! وفرعون أنف أن يعبد شيئاً أصلاً! فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعظيمين المتكبرين لحجر أو خشية! وإنما ينبغي أن يذل الناقص للكامل!!

وقد أشير إلى هذا في دم الأصنام في قوله تعالى: ﴿الْهَمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، والمعنى: أنتم لكم هذه الآلات المدركة، وهم ليس لهم؛ فكيف يعبد الكامل الناقص؟!

غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف واستحلاء ما اخترعوه بأرائهم غطى على العقول فلم تتأمل حقائق الأمور!

ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه!
فأمية بن أبي الصلت يقر برسول الله، ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا أؤمن برسول ليس من ثقيف!

وأبو جهل يقول: والله؛ ما كذب محمد قط، ولكن؛ إذا كانت السدانة^(٢) والحجابة^(٣) في بني هاشم ثم النبوة؛ فما بقي لنا؟!

وأبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلم أنك على الحق، ولولا أن تُعيرني

(١) أستاذنا: أعجازنا.

(٢) السدانة: خدمة الكعبة.

(٣) الحجابة: حراسة الحجيج.

نساء قريش؛ لأقررتُ بها عينك.
فنعوذُ بالله من ظلمة حسد، وغيابة كبر، وحقارة هوى يغطي على نور العقل،
ونسأله إلهام الرشد والعمل بمقتضى الحق.

○○○○○

منع الدنيا نعمة تحتاج إلى شكر

تفكرتُ في قولِ شيبان الراعي لسفيان: يا سفيان! عُدْ منع الله إياك عطاءً منه لك؛
فإنه لم يمنَعك بُخلًا، إنما مَنَعَكَ لُطْفًا. فرأيتُه كلامَ مَنْ قد عَرَفَ الحقائق.
فإن الإنسانَ قد يريدُ المستَحْسَنَاتِ الفَائِقَاتِ فلا يَقْدِرُ، وعَجْزُهُ أصلحُ له، لأنَّه
لو قَدَّرَ عليهنَّ؛ تَشَتَّتَ قلبُه: إما بِحِفْظِهِنَّ، أو بالكسْبِ عليهنَّ. فإن قَوِيَ عِشْقُهُ لهنَّ؛
ضاعَ عُمْرُهُ، وانقلبَ هُمُّ الآخرةِ إلى الاهتمامِ بهنَّ. فإن لم يُرِدْنَهُ؛ فذاك الهلاكُ الأكبرُ. وإن
طَلَبْنَ نفقةً لم يُطْفِقْها؛ كان سببَ ذهابِ مروءتِه وهلاكِ عِزِّهِ. وإن ماتَ معشوقُهُ؛ هلكَ
هو أسفًا. فالذي يَطْلُبُ الفائقَ يَطْلُبُ سَكِينًا لذبحِه وما يعلمُ.
وكذلك إنفاذُ قَدْرِ القوتِ؛ فإنه نعمة، وفي «الصحيحين»: أن رسولَ الله ﷺ قال:
«اللهم! اجعل رِزْقَ آلِ محمدٍ قوتًا»^(١). ومتى كَثُرَ؛ تَشَتَّتَ الهُمُّ.
فالعاقلُ مَنْ عِلِمَ أن الدنيا لم تُخْلَقْ للتَّعْليمِ، فَتَنَعَ بدفعِ الوقتِ على كُلِّ حالٍ.

○○○○○

نصيحة لكبار السن

كنتُ أسمعُ عليَّ بنَ الحسينِ الواعظَ يقولُ على المنبرِ: والله! لقد بَكَيْتُ البارحةَ من
يَدِ نفسي.

فَبَيَّتُ أنا أنفَكُ وأقولُ: أيُّ شيءٍ قد فَعَلْتَ نفسُ هذا حتى يبكي؟! هذا رجلٌ
متنعمٌ، له الجوارى التركياتُ، وقد بَلَغَنِي أنه تزَوَّجَ في السَّرِّ بِجُمْلَةٍ من النساءِ، ولا يَطْعَمُ
إِلَّا الغايةَ من الدَّجاجِ والحلوى، وله الدَّخْلُ الكثيرُ، والمالُ الوافرُ، والجاهُ العريضُ،

(١) البخاري (٦٤٦٠)؛ ومسلم (١٠٥٥).

والأفضال على النَّاسِ، وقد حَصَلَ طَرَفًا من العلم، واستعبدَ كثيرًا من العلماءِ بمَعْرِفِهِ،
وراحتهُ دائمةُ النَّدى؛ فما الذي يُبْكِيهِ؟!

فَتَفَكَّرْتُ، فعلمتُ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، بل تَرُومُ مِنَ اللَّذَّاتِ مَا لَا مُتَهَيِّ
لَهُ، وكلَّمَا حَصَلَ لَهَا غَرَضٌ؛ بَرَدَ عِنْدَهَا وَطَلَبَتْ سِوَاهُ، فَيَفْنَى الْعُمُرُ، وَيَضْعُفُ الْبَدَنُ،
وَيَقَعُ النَّقْصُ، وَيَرِقُّ الْجَاهُ، وَلَا يَحْصُلُ الْمَرَادُ.

وأبلهُ الْبُلْهُ الشَّيْخُ الَّذِي يَطْلُبُ صَبِيَّةً! وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ كِهَالَ الْمُتَعَةِ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالصَّبَا، ومتى لم تكن الصَّبِيَّةُ بِالْغَةِ؛ لم يَكْمُلِ الْاِسْتِمَاعُ! فَإِذَا بَلَغَتْ؛ أَرَادَتْ كَثْرَةَ الْجَمَاعِ،
وَالشَّيْخُ لَا يَقْدِرُ! فَإِنْ حَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ؛ لم يَبْلُغْ مُرَادَهَا، وَهَلَكَ سَرِيعًا.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِشَهَوَتِهِ الْجَمَاعِ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ كَالْفَجْرِ الْكَاذِبِ، وَقَدْ رَأَيْنَا شَيْخًا
اشْتَرَى جَارِيَةً، فَبَاتَ مَعَهَا، فَأَنْقَلَبَ عَنْهَا مَيِّتًا.

وَإِنْ قَنِعَ الشَّيْخُ بِالْاِسْتِمَاعِ مِنْ غَيْرِ وَطْءٍ؛ فَهِيَ لَا تَقْنَعُ، فَتَصِيرُ كَالْعَدُوِّ لَهُ؛ فَرَبَّمَا
غَلَبَهَا الْهَوَى فَفَجَرَتْ، أَوْ احْتَالَتْ عَلَى قَتْلِهِ.

وَقَبِيحٌ بِمَنْ عَبَرَ السَّتِينَ أَنْ يَتَعَرَّضَ بِكَثْرَةِ النِّسَاءِ!

فَإِنْ اتَّفَقَ مَعَ صَاحِبَةِ دِينٍ قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَلْيَرْعَ لَهَا مَعَاشَرَتَهَا، وَلِيَتِمَّ نَقْصُهُ عِنْدَهَا؛
تَارَةً بِالْإِنْفَاقِ، وَتَارَةً بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلِيَزِدَّ فِي تَعْرِيفِهَا أَحْوَالَ الصَّالِحَاتِ وَالزَّاهِدَاتِ،
وَلِيُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ الْقِيَامَةِ وَذِمِّ الدُّنْيَا.

فَإِنْ قَدَّرَ أَنْ يَشْغَلَهَا بِحَمْلٍ أَوْ وَلَدٍ؛ عَرَّقْهَا بِهِ^(١)، فَاسْتَبْقَى قُوَّتَهُ فِي مَدَّةِ اشْتَغَالِهَا
بِذَلِكَ. فَإِنْ وَطِئَ؛ فَلْيَصْبِرْ عَنِ الْإِنْزَالِ حِفْظًا لِقُوَّتِهِ وَقِضَاءً لِحَقِّهَا.

وَقَدْ قِيلَ لِبَشَرٍ: لِمَ لَمْ تَتَزَوَّجْ؟ فَقَالَ: عَلَى مَاذَا أُعِزُّ مُسْلِمَةً؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ: ﴿وَهَنَ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْعُرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].



(١) عرقلها به: أشغلها وصعب عليها أمرها.

السعيد من وعظ بغيره

أعجبُ الأشياءِ اغترارُ الإنسانِ وتأميلهُ الإصلاحَ فيما بعدُ!
وليس لهذا الأملِ منتهى ولا للاغترارِ حدٌّ؛ فكُلُّها أصبحَ وأمسى معاقٍ؛ زادَ
الاغترارُ وطالَ الأملُ.

وأَيُّ موعظةٍ أبلغُ من أن تَرى ديارَ الأقرانِ وأحوالَ الإخوانِ وقُبورَ المحبوبينَ،
فتعلمَ أَنَّك بعدَ أيامٍ مثلهم، ثم لا يَقَعُ انتباهٌ حتَّى يَتَّبِعَهُ الغيرُ بك؟! وهذا واللهِ شأنُ
الحَمَقِ! حاشا من لهُ عَقْلٌ أن يَسْلُكَ هذا المَسْلَكَ.

بلى والله؛ إِنَّ العاقلَ لَيبادِرُ السَّلامَةَ، فيدْخِرُ من زَمَنِها للزَّمنِ^(١)، ويتزوَّدُ عندَ
القدرةِ على الزَّادِ لوقتِ العُسرةِ، خصوصًا لِمَن قد عَلِمَ أَنَّ مراتبَ الآخرةِ إِنَّمَا تَعْلُو
بمقدارِ علوِّ العملِ لها، وأن التَّدَارُكَ بعدَ الفَوْتِ لا يمكنُ.

وقدَّرَ أَنَّ العاصِيَ عُقِيَّ عنه؛ أينالُ مراتبِ العَمالِ؟!

ومَن أجالَ على خاطِرِهِ ذَكَرَ الجنةَ التي لا موتَ فيها ولا مرضَ ولا نومَ ولا غَمَّ،
بل لَذَائِهَا متَّصلةٌ من غيرِ انقطاعٍ، وزيادتها على قَدَرِ زيادةِ الجِدِّها هنا؛ انتَهَبَ هذا الزَّمانُ؛
فلم يَنَمِ إِلَّا ضرورةً، ولم يغفلَ عن عِمارةِ لحظةٍ.

ومَن رأى أَنَّ ذنبًا قد مضى لَذائهُ وبقيتْ آفائُهُ دائمةً؛ كفاه ذلك زاجراً عن مثله؛
خصوصًا الذُّنُوبَ التي تتَّصِلُ آثارُها؛ مثل أن يَزِنِيَ بذاتِ زوجٍ، فتَحْمِلَ منه، فتُلْحِقَ
بالزوجِ، فيُمنَعَ الميراثُ أهلُهُ، ويأخُذَهُ مَن ليس مِن أهلِهِ، وتتغيَّرُ الأنسابُ والقرُشُ،
ويتَّصِلَ ذلك أبداً، وكلُّهُ سُؤْمٌ لحظةٍ.

فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ توفيقاً يُلْهِمُ الرِّشَادَ ويمنعُ الفسادَ؛ إِنَّهُ قريبٌ مجيبٌ.



الطريق إلى الجنة

والله؛ إني لأتخايل دخول الجنة، ودوام الإقامة فيها؛ من غير مَرَضٍ، ولا بُصَاقٍ، ولا نومٍ، ولا آفة تَطْرَأُ! بل صِحَّةٌ دائمةٌ، وأعراضٌ متصلةٌ، لا يَعْتَوِرُهَا مُنْغَصٌّ، في نعيمٍ متجدِّدٍ في كُلِّ لحظةٍ، إلى زيادةٍ لا تتناهى.. فأطيشُ، ويكادُ الطبعُ يَضِيقُ عن تصديق ذلك، لولا أَنَّ الشرعَ قد ضَمِنَهُ!

ومعلومٌ أَنَّ تلكَ المنازلَ إِنَّمَا تكونُ على قَدْرِ الاجتهادِ ها هنا.
فوا عجبًا من مُضَيِّعِ لحظةٍ فيها! فتسيحةٌ تَغْرِسُ له في الجنةِ نَخْلَةً أَكَلُهَا دائمٌ وظِلُّها.
فكلُّ الآفاتِ والمخافاتِ في نهارِ الأجلِ، وقد اصفَرَّتْ شَمْسُ العُمُرِ؛ فالبدارَ البدارَ قَبْلَ الغروبِ!

ولا مُعَيَّنٍ يرافِقُ على تلكَ الطريقِ إِلَّا الفِكْرُ إذا جَلَسَ مع العقلِ فتذاكرا العواقبَ؛ فإذا فرغَ ذلكَ المجلسُ؛ فالنَّظَرُ في سِرِّ المُحَدِّثِينَ؛ فَإِنَّهُ يعودُ مُسْتَجَلِبًا لِلْفِكْرِ منها شَتَّى الفضائلِ، والتوفيقُ من وراء ذلك، ومتى أَرَادَكَ لشيءٌ؛ هَيَّاكَ له.
فأما مَخَالِطَةُ الَّذِينَ ليس عندهم خَبَرٌ إِلَّا من العاجلةِ فهو من أكبرِ أسبابِ مَرَضٍ الفَهْمِ وَعِلَلِ الْعَقْلِ، والعزلةُ عن الشرِّ حِمِيَّةٌ^(١)، والحِمِيَّةُ سببُ العافيةِ.



أسبابُ الهوم والغموم

رايتُ سببَ الهوم والغموم: الإعراضُ عن الله عزَّ وجلَّ، والإقبالُ على الدنيا. وكلَّما فاتَ منها شيءٌ؛ وَقَعَ الغمُّ لِفَوَاتِهِ.

فأما مَنْ رُزِقَ معرفةَ الله تعالى؛ استراحَ؛ لأنَّه يَسْتَغْنِي بالرَّضَى بالقضاءِ، فمهما قُدِّرَ له؛ رَضِيَ، وإنْ دعا فلم يَرِ أثرَ الإجابةِ؛ لم يَخْتَلِجْ في قلبِهِ اعتراضٌ؛ لأنَّه مملوكٌ مُدَبَّرٌ، فتكونُ هِمَّتُهُ في خدمةِ الخالقِ.

ومن هذه صفتهُ؛ لا يؤثرُ جَمْعُ مالٍ، ولا مَخَالِطَةُ الخلقِ، ولا الالتذاذُ بالشَّهَوَاتِ؛

(١) حية: وقاية مما يضر.

لأنه إما أن يكون مقصراً في المعرفة؛ فهو مقبلٌ على التعبد المحض، يزهد في الفاني لينال الباقي، وإما أن يكون له ذوقٌ في المعرفة؛ فإنه مشغولٌ عن الكلِّ بصاحبِ الكلِّ، فتراهُ متأدباً في الخلوة به، مستأنساً بمناجاته، مستوحشاً من مخالطة خلقه، راضياً بما يقدرُ له. فعيشه معه كعيشِ محبٍّ قد خلا بحبيبه؛ لا يريدُ سواه، ولا يهتمُ بغيره. فأما من لم يُرزق هذه الأشياء؛ فإنه لا يزال في تنغيص، متكدر العيش؛ لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدرُ عليه، فيبقى أبداً في الحسرات، مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة. نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يستصلحنا له؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به.



أخلاق الكرام

من البله أن تبادرَ عدواً أو حسوداً بالمُخاصمة. وإنما ينبغي إن عرفتَ حاله أن تُظهرَ له ما يوجبُ السلامةَ بينكما؛ إن اعتذرَ قِبلتَ، وإن أخذَ في الخصومةِ صفحتَ، وأريتَه أنَّ الأمرَ قريبٌ، ثم تُبطنُ الحذرَ منه؛ فلا تثقُ به في حالٍ، وتتجافاهُ باطناً، مع إظهارِ المخالطةِ في الظاهرِ. فإذا أردتَ أن تؤذيه؛ فأولُ ما تؤذيه به إصلاحُك واجتهادُك فيما يرفعُك. ومن أعظمِ العقوبةِ له العفوُ عنه لله. وإن بالغَ في السبِّ؛ فبالغَ في الصفح؛ تُنبِ عنك العوامَ في شتمِهِ، ويَحْمَدُك العلماءُ على حلمِكَ^(١)! وما تؤذيه به من ذلك خيرٌ مما تؤذيه به من كلمةٍ إذا قُلْتها له سَمِعَتْ أضعافها.

ثم بالخصومةِ تُعلمُهُ أنَّك عدوُّه؛ فياخذُ الحذرَ، ويُسبِطُ اللسانَ، وبالصفحِ يُجهلُ ما في باطنِكَ؛ فيمكنُك حينئذٍ أن تستفيَ منه، أما أن تلقاهُ بما يؤذي دينَكَ؛ فيكونَ هو الذي قد اشتفى منك! وما ظفرَ قطُّ من ظفرٍ به إلا ثم، بل الصفحُ الجميلُ. وإنما يقعُ هذا بمن يرى أنَّ تسليطه عليه: إما عقوبةٌ لذنبٍ، أو لرفعِ درجةٍ، أو للابتلاء؛ فهو لا يرى الخصمَ، وإنما يرى القدرةَ.

(١) ينبغي أن يكون الباعث على الحلم والعفو هو رضى الله عزَّ وجلَّ لثناء المخلوقين.

الخير في اختيار الله

إذا وقعت في محنة يَضْعُبُ الخلاص منها؛ فليس لك إلا الدعاء واللجأ إلى الله بعد أن تُقدِّم التوبة من الذنوب؛ فإنَّ الزَّلَّ يوجب العقوبة؛ فإذا زال الزَّلُّ بالتوبة من الذنوب؛ ارتفع السبب.

فإذا ثبت ودعوت ولم تر للإجابة أثرًا؛ فتَقَدَّرَ أمرُك؛ فربما كانت التوبة ما صَحَّحت، فصَحَّحها، ثم ادعُ، ولا تَمَلَّ من الدعاء؛ فربما كانت المصلحة في تأخير الإجابة، وربما لم تكن المصلحة في الإجابة؛ فأنت تثاب وتُجَابُ إلى منافعك، ومن منافعك أن لا تُعطى ما طلبت، بل تُعوَّضَ غيرُه.

فإذا جاء إبليس، فقال: كم تَدْعُوهُ ولا ترى إجابة! فقل: أنا أتعبدُ بالدُّعاء، وأنا موقنٌ أنَّ الجواب حاصلٌ؛ غيرَ أَنَّهُ ربِّما كان تأخيرُه لبعضِ المصالح عليَّ مناسبٌ، ولو لم يحصل؛ حصَلَ التعبُّدُ والذلُّ.

فإياك أن تسأل شيئًا إلا وتقرنه بسؤالِ الخيرة؛ فربَّ مطلوبٍ من الدنيا كان حصولُه سببًا للهلاك.

وإذا كنت قد أمرتَ بالمشاورة في أمور الدنيا لجليسك؛ ليُبينَ لك في بعض الآراء ما يُعْجزُ رأيك، وترى أنَّ ما وَقَعَ لك لا يَصلُحُ؛ فكيف لا تسأل الخيرَ ربَّك وهو أعلمُ بالمصالح؟! والاستخارة من حُسنِ المشاورة.



مفاسدُ سؤالِ الخلق

العَجَبُ من الذي أنفَ الذَّلَّ! كيف لا يصبرُ على جافِّ الخبز، ولا يتعرَّضَ لمنينِ الأندال؟!

أتراه ما يعلمُ أَنَّهُ ما بقيَ صاحبُ مروءة؟! وأَنَّهُ إنَّ سأل؛ سألَ بخيلاً لا يُعطي؛ فإن أعطى نَزَرًا^(١)؛ فَإِنَّهُ يَسْتَعْبِدُ المعطى بذلك العُمَرُ؟!

(١) نَزَرًا: قليلاً.

ثم ذاك القدرُ النَّزْرُ يذهبُ عاجلاً، وتبقى المِنَّةُ والحُجْلُ ورؤية النفسِ بعينِ الاحتقارِ؛ إذ صارتُ سائلةً، ورؤية المعطِي بعينِ التعظيمِ أبداً.
ثم يوجبُ ذلك السكوتَ عن معائبِ المُعْطِي، والبدارَ إلى قضاءِ حقوقِهِ وخدمتهِ فيما بقي.

وأعجبُ من هذا مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَعِيدَ الأحرارَ بقليلِ العطاءِ الفاني ولا يفعلُ؛ فإنَّ الحرَّ لا يُشْتَرَى إِلَّا بالإحسانِ.
قالَ الشاعرُ:

تَفْضَّلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَاغْنِ بِأَمْرِهِ فَأَنْتَ وَلَوْ كَانَ الْأَمِيرَ أَمِيرُهُ
وَكُنْ ذَا غِنَى عَمَّنْ تَشَاءُ مِنَ الْوَرَى وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَوَاقِفًا عَلَى طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أُسِيرُهُ

○○○○○

أسباب تراخي الخلق في الإقبال على الله تعالى

تأملتُ على الخلقِ، وإذا هم في حالةٍ عجيبةٍ، يكادُ يُقَطَّعُ معها بفسادِ العقلِ!
وذلك أنَّ الإنسانَ يَسْمَعُ المواعِظَ، وتُذَكِّرُ له الآخرةُ، فيعلمُ صدقَ القائلِ، فيبكي وينزعجُ على تفريطِهِ، ويعزمُ على الاستدراكِ، ثم يترأخى عمله بمُقتَضَى ما عَزَمَ عليه؛ فإذا قيلَ له: أَتَشْكُ فيما وُعِدْتَ به؟ قال: لا والله. فيقالُ له: فاعْمَلْ! فينوي ذلك، ثم يتوقَّفُ عن العملِ، وربَّما مَالَ إلى لَذَّةٍ محرَّمةٍ، وهو يعلمُ النهيَ عنها!
ومن هذا الجنسِ تأخُّرُ الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا، ولم يكنْ لهم عُذْرٌ، وهم يعلمونَ قُبْحَ التأخُّرِ، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرطٍ.

فتأملتُ السببَ، مع أنَّ الاعتقادَ صحيحٌ والفعلُ بطيءٌ؛ فإذا له ثلاثةُ أسبابٍ:
أحدها: رؤيةُ الهوى العاجلِ؛ فإنَّ رؤيته تُشْغِلُ عن الفكرِ فيما يجنيه.

والثاني: التسويفُ بالتوبة؛ فلو حَصَرَ العقلُ؛ لَحَذَرَ من آفاتِ التأخيرِ؛ فربَّما هَجَمَ الموتُ ولم تحصلِ التوبةُ! والعجبُ مَنْ يُجَوِّزُ سَلْبَ روحِهِ قبلَ مُضيِّ ساعةٍ، ولا يعملُ على الحزمِ! غيرَ أنَّ الهوى يطيلُ الأمدَ.

وقد قال صاحبُ الشرع رحمته الله: «صَلِّ صَلَاةً مُودَّعًا»^(١)، وهذا نهايةُ الدواءِ لهذا الداء؛ فإنه مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَبْقَى إِلَى صَلَاةٍ أُخْرَى؛ جَدَّ وَاجْتَهَدَ.

والثالث: رجاءُ الرحمة، فيرى العاصي يقول: ربي رحيمٌ! وينسى أنه شديدُ العقاب!! ولو عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَيْسَتْ رِقَّةً - إِذْ لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ؛ لَمَا ذَبَحَ عُصْفُورًا وَلَا أَلَمَ طِفْلًا - وَعِقَابُهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ - فَإِنَّهُ شَرَعَ قَطَعَ الْيَدَ الشَّرِيفَةَ^(٢) بِسَرِقَةِ خَمْسَةِ قَرَارِيطَ - لَجَدَّ وَأَنَابَ. فَسَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَهَبَ لَنَا حَزْمًا يَبُتُّ الْمَصَالِحَ جَزْمًا.

○○○○○

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ! هَذِهِ حَقِيقَتُكَ

عَجِبْتُ لِمَنْ يُعْجَبُ بِصُورَتِهِ، وَيَخْتَالُ فِي مَشِيَّتِهِ، وَيَنْسَى مَبْدَأَ أَمْرِهِ!
إِنَّمَا أَوَّلُهُ لَقْمَةٌ ضُمَّتْ إِلَيْهَا جُرْعَةٌ مَاءٍ. فَإِنْ شَتَّ؛ فَقُلْ: كُسِيرَةُ خَبَزٍ، مَعَهَا تَمْرَاتٌ، وَقِطْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ، وَمَذَقَةٌ^(٣) مِنْ لَبَنٍ، وَجُرْعَةٌ مِنْ مَاءٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ، طَبَخْتُهُ الْكَبِدُ، فَأَخْرَجْتُ مِنْهُ قَطْرَاتٍ مَنِيٍّ، فَاسْتَقَرَّ فِي الْأَنْثَيْنِ^(٤)، فَحَرَّكَتْهَا الشَّهْوَةُ، فَصَبَّتْ، فَبَقِيَتْ فِي بَطْنِ الْأُمِّ مَدَّةً حَتَّى تَكَامَلَتْ صُورَتُهَا، فَخَرَجَتْ طِفْلًا، يَتَقَلَّبُ فِي خِرْقِ الْبَوْلِ.
وَأَمَّا آخِرُهُ؛ فَإِنَّهُ يُلْقَى فِي التَّرَابِ، فَيَأْكُلُهُ الدُّودُ، وَيَصِيرُ رُفَاتًا^(٥) تَسْفِيهِ السَّوَاقِ^(٦).
وَكَمْ يَخْرُجُ تَرَابٌ بِدَنِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَيُقَلَّبُ فِي أَحْوَالٍ، إِلَى أَنْ يَعُودَ فَيُجْمَعُ!
هَذَا خَبْرُ الْبَدَنِ.

إِنَّمَا الرُّوحُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ: فَإِنْ تَجَوَّهَرَتْ بِالْأَدَبِ، وَتَقَوَّمتْ بِالْعِلْمِ، وَعَرَفَتْ الصَّانِعَ،

(١) أحد (٢٢٩٨٧)؛ وابن ماجه (٤١٧١).

(٢) الشريفة: أي المصانة، ولكنها لما خانت هانت، فقطعت.

(٣) المذقة: بعض اللبن المزوج بالماء.

(٤) الأنثيين: الخصيتين.

(٥) رفاتًا: حطامًا وفتاتًا.

(٦) تسفيه السواقي: تذرّه الرياح المحملة بالرمال والغبار.

وقامت بحقه؛ فما يُضَرُّها نَقْضُ المَرْكَبِ. وإن هي بَقِيَتْ على صِفَتِها من الجهالة؛ شابهت الطين، بل صارت إلى أَحْسَنِّ حالةٍ منه.



أَخْلَصْ لِرَبِّكَ وَلَا تُرَانِي

عجبتُ لمن يتصنَّعُ للناسِ بالزُّهْدِ، يرجو بذلك قَرَبَهُ من قلوبِهِم، وَيُنْسِي أَنَّ قلوبَهُم بيد مَنْ يعملُ له؛ فَإِنْ رَضِيَ عَمَلُهُ ورآه خالصًا؛ لَفَتَ القلوبَ إليه، وإنْ لم يَرَهُ خالصًا؛ أعرَضَ بها عنه.

ومتى نَظَرَ العاملُ إلى التفاتِ القلوبِ إليه؛ فقد زاحمَ الشُّركَ؛ لأنه ينبغي أن يَقْنَعَ بنظرِ مَنْ يعملُ له.

ومن ضرورةِ الإخلاصِ ألا يَقْصِدَ التفاتَ القلوبِ إليه؛ فذاك يَحْصُلُ لا بقصده، بل بكراهيته لذلك.

وليَعْلَمَ الإنسانُ أَنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا يَعْلَمُهَا الخَلْقُ جَمْلَةً، وإنْ لم يَطَّلِعُوا عليها؛ فالقلوبُ تشهدُ للصالحِ بالصَّلاحِ وإنْ لم يشاهدْ منه ذلك.

فَأَمَّا مَنْ يَقْصِدُ رُؤْيَا الخَلْقِ بعملِهِ؛ فقد مَضَى العملُ ضائعًا؛ لَأَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَ الخالقِ، ولا عِنْدَ الخَلْقِ؛ لَأَنَّ قلوبَهُم قد أُلْفِتَتْ عنه؛ فقد ضاعَ العلمُ، وذهبَ العُمُرُ! فليَتَّقِ اللهَ العبدُ، ويقْصِدْ مَنْ يَنْفَعُهُ قَصْدُهُ، ولا يَتَشَاغَلَ بمدحِ مَنْ عن قليلٍ يَبْلَى هُوَ وَهَمُّهُ.



وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

العجبُ مَنْ يَقُولُ: أَخْرِجْ إلى المقابرِ فَأَعْتَبِرْ بأهلِ البِلِّ^(١)!! ولو فَطِنَ؛ عَلِمَ أَنَّهُ مقبرةٌ؛ يَغْنِيهِ الاعتبارُ بما فيها عن غيرها!

خصوصًا مَنْ قد أوغل في السنِّ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ ضَعُفَتْ، وَقُوَاهُ قَلَّتْ، والحواسُّ

(١) وما العجب في ذلك وقد قال ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة».

كَلَّتْ، والنشاطُ فَتَرَ، والشعرُ ابْيَضَّ.

فليعتبر بها فَقَدْ، وليستغن عن ذِكْرِ مَنْ فَقَدْ؛ فقد استغنى بها عنده عن التطلع إلى غيره.



في ضرورة التثبت في الأمور والنظر في عواقبها

ما اعتمد أحدٌ أمراً إذا هم بشيءٍ مثل التَّثَبُّتِ؛ فإنه متى عَمِلَ بواقعةٍ من غير تأملٍ للعواقبِ؛ كان الغالبُ عليه الندمُ، ولهذا أُمِرَ بالمشاورة؛ لأنَّ الإنسانَ بالتَّثَبُّتِ يَفْتَكِرُ، فتعرَّضَ على نفسه الأحوالُ، وكأنَّه شاورَ، وقد قيل: خَيْرُ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ فَطِيرِهِ^(١).

وأشدُّ الناسِ تَفْرِيطاً مَنْ عَمِلَ مبادرةً في واقعةٍ، من غير تَثَبُّتٍ ولا استشارةٍ، خصوصاً فيما يوجبُ الغضبَ؛ فإنه طلبُ الهلاكِ أو الندمِ العظيمِ.

وكم من غَضَبٍ، فَقَتَلَ، وَضَرَبَ، ثم لما سَكَنَ غَضَبُهُ؛ بقي طولَ دهرِهِ في الحزنِ والبكاءِ والندمِ! والغالبُ في القاتلِ أَنَّهُ يُقْتَلُ فتفوته الدنيا والآخرةُ.

فكذلك مَنْ عَرَضَتْ لَهُ شهوةٌ، فاستعجلَ لَذَّتْهَا، ونَسِيَ عاقبتها؛ فكم من نَدَمٍ يتجرَّعُهُ في باقي عُمُرِهِ، وعتابٍ يَسْتَقْبِلُهُ من بعدِ مَوْتِهِ، وعقابٍ لا يؤمِّنُ وقوعَهُ؛ كلُّ ذلكِ لِلذَّهْلِ لحظةٍ كانت كَبْرَقَ.

فاللهُ الله!! التَّثَبُّتُ التَّثَبُّتُ في كُلِّ الأُمُورِ! والنظرُ في عواقبها! خصوصاً الغضبُ المثيرُ للخصومةِ وتعجيلِ الطلاقِ.



وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

بلغني عن بعضِ الكُرماءِ أَنَّ رجلاً سألَهُ، فقال: أنا الذي أحسنتَ إليَّ يومَ كذا وكذا. فقال: مرحباً بمن يَتَوَسَّلُ إلينا بنا. ثم قَصَى حاجتَهُ.

فأخذتُ من ذلك إشارةً، فناجيتُ بها، فقلتُ: أنت الذي هَدَيْتُهُ من زمنِ الطُّفُولَةِ، وَحَفِظْتُهُ من الضَّلَالِ، وَعَصَمْتُهُ عن كثيرٍ من الذُّنُوبِ، وألممتَهُ طلبَ العلمِ، ولا يفهمُ

(١) أي الرأي الذي نتج عن روية وتودة خير من الرأي الذي نتج عن عجلة وسرعة.

لشرفه لموضع الصَّغَرِ، ولا بحبِّ والدِهِ، ورَزَقَتْهُ فهِمَا لتفْقَهِهِ وتصنيفِهِ، وهَيَّأتَ له أسبابَ جمعِهِ، وقمتَ برزقِهِ من غيرِ تعبٍ منه ولا دُلَّ للخلْقِ بالسؤالِ، وحامَيْتَ عنه الأعداءَ فلم يقصِدْهُ جبارٌ، وجمعتَ له ما لم تَجْمَعْ لأكثرِ الخلقِ من فنونِ العلمِ التي لا تكادُ تجتمعُ في شخصٍ، وأضفتَ إليها تَعَلُّقَ القلبِ بمعرفتِكَ ومحبتِكَ، وحسنَ العبارةَ ولُطْفَها في الدَّلالةِ عليك، ووضعتَ له في القلوبِ القبولَ، حتى إِنَّ الخلقَ يُقبِلُونَ عليه، ويَقْبَلُونَ ما يَقُولُهُ، ولا يشْكُونَ فيه، ويشتاقُونَ إلى كلامِهِ، ولا يدركُهُم المللُ منه، وصُنَّتْهُ بالعزلةِ عن مخالطةِ مَنْ لا يَصْلُحُ، وأنسَتْهُ في خلوتِهِ بالعلمِ تارةً، وبمناجاتِكَ أخرى، وإن ذهبَتْ أعداؤُهُ لم أَقْدِرْ على إحصاءِ عُسْشِرِ العُسْشِرِ ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعَمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فيا حسناً إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ! لا تُحِبِّ أَملي فيكَ وأنا أَطْلُبُ؛ فبِإِنْعَامِكَ المُتَقَدِّمِ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ.



من قصص البُخلاءِ

سبحانَ مَنْ جَعَلَ الخَلْقَ بَيْنَ طَرَفَيْ نَقِيضٍ، والمتوسِّطُ منهم يَنْدُرُ!
فالمُنْفِقُ كُلُّ ما يَجِدُ مَبْدُرًا، والبَخِيلُ يَحْبِيءُ المَالَ ويمنعُ نفسَهُ حَظَّها.

ومن الناسِ مَنْ يَبْخُلُ، ثم يتفاوتونَ في البخلِ، حتى ينتهي البلاءُ بهم إلى عِشْقِ عَيْنِ المَالِ؛ فربَّما ماتَ أَحَدُهُمْ هُزْلاً وهو لا يُنْفِقُهُ، فَيَأْخُذُهُ الغَيْرُ، ويندَمُ المُخْلَفُ!!

ولقد بلغني في هذا ما ليس فوقَهُ مزيدٌ، ذكرْتُهُ لتعتبرَ به:

فحدَّثني شيخنا أبو الفضلِ بنُ ناصرٍ عن شيخِهِ عبدِ المحسنِ الصُّورِيِّ؛ قال: كان بصورٍ تاجرٌ في غُرفةٍ له، يأخذُ كُلَّ ليلةٍ مِنَ البَقَالِ رَغِيفَيْنِ وَجَوْزَةً، فيدْخُلُ إلى غُرفَتِهِ وقتَ المغربِ، فيُضْرِمُ النارَ في الجَوْزَةِ، فتضيءُ بمقدارِ ما يَنْزِعُ ثوبَهُ، وفي زمانِ إحراقِ القَشْرِ تكونُ قَدِ استوتْ، فيمَسَحُ بها الرَغِيفَيْنِ ويأْكُلُهُما... فبقي على هذا مدةً، فماتَ، فأخذَ منه مَلِكٌ صورٍ ثلاثينَ أَلْفًا!!

وحكى لي صديقٌ لنا: أَنَّ رجلاً ماتَ وَدُفِنَ في الدارِ، ثم بُشِسَ بعدَ مَدَّةٍ لِيُخْرَجَ،

فَوُجِدَ تَحْتَ رَأْسِهِ لَبَنَةٌ مُقَيَّرَةٌ^(١)، فَسُئِلَ أَهْلُهُ عَنْهَا؟ فَقَالُوا: هُوَ قَيَّرَ هَذِهِ اللَّبَنَةَ وَأَوْصَى أَنْ تُتْرَكَ تَحْتَ رَأْسِهِ فِي قَبْرِهِ وَقَالَ: إِنَّ اللَّبْنَ يَبْلَى سَرِيعًا، وَهَذِهِ لِمَوْضِعِ الْقَارِ لَا تَبْلَى. فَأَخَذُوهَا، فَوَجَدُوهَا رَزِينَةً^(٢)، فَكَسَرُوهَا، فَوَجَدُوا فِيهَا تِسْعَ مِائَةِ دِينَارٍ، فَتَوَلَّاهَا أَصْحَابُ التَّرِكَاتِ!!

وَبَلَّغْنِي أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَكْنُسُ الْمَسَاجِدَ، وَيَجْمَعُ تَرَابَهَا، ثُمَّ صَرَبَهُ لَبَنًا، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا لِأَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: هَذَا تَرَابُ مَبَارِكٍ، وَأُرِيدُ أَنْ يَجْعَلُوهُ عَلَى لَحْدِي: فَلَمَّا مَاتَ؛ جُعِلَ عَلَى لَحْدِهِ، فَقُضِّلَ مِنْهُ لَبَنَاتٌ، فَرَمَوْهَا فِي الْبَيْتِ، فَجَاءَ الْمَطَرُ، فَتَفَسَّخَتِ اللَّبَنَاتُ؛ فَإِذَا فِيهَا دَنَانِيرُ، فَمَضَوْا، وَكَشَفُوا اللَّبْنَ عَنْ لَحْدِهِ، وَكُلُّهُ مَمْلُوءٌ دَنَانِيرًا!!

فَسَبَّحَانَ مَنْ أَعَدَّ هَؤُلَاءِ الْعُقُولَ وَالْفُهُومَ!
﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].



تَوَاضَعُ الْعُلَمَاءُ

إِذَا تَمَّ عِلْمُ الْإِنْسَانِ؛ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، وَإِنَّمَا يَرَى إِنْعَامَ الْمَوْفِقِ لَذَلِكَ الْعَمَلِ، وَالَّذِي يَمْنَعُ الْعَاقِلُ أَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ عَمَلًا أَوْ يُعْجَبَ بِهِ أَشْيَاءُ:

* مِنْهَا: أَنَّهُ وَفَّقَ لَذَلِكَ الْعَمَلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

* وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بِالنُّعْمِ؛ لَمْ يَفِ بِمِئْثَارِ عَشْرِهَا.

* وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا لَوَحِظَتْ عَظَمَةُ الْمَخْدُومِ؛ احْتَقَرَ كُلَّ عَمَلٍ وَتَعَبَّدَ.

هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةٍ وَخَلَصَ مِنْ غَفْلَةٍ.

فَأَمَّا وَالْغَفَلَاتُ تَحِيطُ بِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْلِبَ الْحَذَرُ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ الْعِتَابَ عَلَى التَّقْصِيرِ فِيهِ، فَيَسْتَعِزَّ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَتَأَمَّلْ عَلَى الْفُطْنَاءِ أَحْوَاهِمَ فِي ذَلِكَ:

* فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ قَالُوا: مَا عَبْدَنَّاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

(١) مقبرة: مطلية بالقار.

(٢) رزينة: ثقيلة.

* والخليل عليه السلام يقول: ﴿وَالَّذِي أطمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدلَّ بتصبره على النار وتسليمه الولد إلى الذبح.

* ورسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من يُنجيه عمله». قالوا: ولا أنت؟ قال: «ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته» (١).

* وأبو بكر رضي الله عنه يقول: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟!
* وعمر رضي الله عنه يقول: لو أن لي طلاع الأرض؛ لا فتديت بها من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر.

* وابن مسعود يقول: ليتني إذا مت لا أبعث.
* وعائشة رضي الله عنها تقول: ليتني كنت نسياً منسياً.
وهذا شأن جميع العقلاء؛ فرضي الله عن الجميع.

○○○○○

وعاشروهن بالمعروف

شكالي رجل من بغضه لزوجته، ثم قال: ما أقدر على فراقها؛ لأمر؛ منها: كثرة دينها علي وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لسان في الشكوى، وفي كلمات تُعلم بغضي لها.
فقلت له: هذا لا ينفع، وإنما تؤتى البيوت من أبوابها!
فينبغي أن تخلو بنفسك، فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك، فتبالغ في الاعتذار والتوبة.

فأما التضرع والأذى لها؛ فما ينفع؛ كما قال الحسن بن الحجاج: عقوبة من الله لكم؛ فلا تقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار.
واعلم أنك في مقام مُبتلى، ولك أجر بالصبر، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]!

فاعمل الله سبحانه بالصبر على ما قضى، واسأله الفرج؛ فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج؛ حصلت ثلاثة فنون من

(١) البخاري (٥٦٧٣)؛ ومسلم (٢٨١٦).

العبادة، تُثَابُ على كُلِّ منها.

وَلَا تُضَيِّعِ الزَّمَانَ بِشَيْءٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا تَحْتَلْ ظَانًّا مِنْكَ أَنَّكَ تَدْفَعُ مَا قُدِّرَ، ﴿وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

وَأَمَّا أَذَاكَ لِلْمَرَأَةِ؛ فَلَا وَجَهَ لَهُ؛ لِأَنَّهَا مُسَلَّطَةٌ؛ فَلْيَكُنْ شُغْلُكَ بِغَيْرِ هَذَا.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ رَجُلًا سَتَمَهُ، فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي الذَّنْبَ الَّذِي سَلَّطْتَ هَذَا بِهِ عَلَيَّ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَهَذِهِ الْمَرَأَةُ تُحِبُّنِي زَائِدًا فِي الْحَدِّ، وَتَبَالِغُ فِي خِدْمَتِي؛ غَيْرَ أَنَّ الْبُغْضَ لَهَا مَرْكُوزٌ فِي طَبْعِي.

قُلْتُ لَهُ: فَعَامِلِ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّكَ تُثَابُ.

وَقَدْ قِيلَ لِأَبِي عَثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ: مَا أَرْجَى عَمَلِكَ عِنْدَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي صَبَوَتِي يَجْتَهِدُ أَهْلِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، فَأَبَى، فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَثْمَانَ! إِنِّي قَدْ هَوَيْتُكَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي. فَأَحْضَرْتُ أَبَاهَا - وَكَانَ فَقِيرًا -، فَزَوَّجَنِي، وَفَرِحَ بِذَلِكَ. فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ؛ رَأَيْتُهَا عَوْرَاءَ عَوْجَاءَ مُشَوَّهَةً، وَكَانَتْ لِمَحَبَّتِهَا لِي تَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ، فَأَقْعُدُ حِفْظًا لِقَلْبِهَا، وَلَا أُظْهِرُ لَهَا مِنَ الْبُغْضِ شَيْئًا، وَكَأَنِّي عَلَى جَمْرِ الْعَصَا^(١) مِنْ بُغْضِهَا.. فَبَقِيتُ هَكَذَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى مَاتَتْ؛ فَمَا مِنْ عَمَلٍ شَيْءٍ هُوَ أَرْجَى عِنْدِي مِنْ حِفْظِي قَلْبِهَا.

قُلْتُ لَهُ: فَهَذَا عَمَلُ الرِّجَالِ! وَأَيُّ شَيْءٍ يَنْفَعُ ضَجِيجُ الْمُبْتَلَى بِالتَّضَجُّرِ بِإِظْهَارِ الْبُغْضِ؟! وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ؛ مِنَ التَّوْبَةِ، وَالصَّبْرِ، وَسُؤَالِ الْفَرَجِ.

وَتَذَكَّرْ ذُنُوبًا كَانَتْ هَذِهِ عَقُوبَتُهَا؛ فَإِنْ وَقَعَ فَرَجٌ فِي الْحَسَابِ، وَإِلَّا فَاسْتَعْمَلِ الصَّبْرَ عَلَى الْقَضَاءِ عِبَادَةً.

وَتَكَلَّفْ إِظْهَارَ الْمَوَدَّةِ لَهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي قَلْبِكَ تُثَبُّ عَلَى هَذَا.

وَلَيْسَ لِلْقَيْدِ ذَنْبٌ فَيَلَامُ، إِنَّمَا يَنْبَغِي التَّشَاغُلُ مَعَ مَنْ قَيْدُهُ.

وَالسَّلَامُ.



(١) جمر الغضا: الغضا: شجر من الأثل صلب الخشب، وجره يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفئ.

لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ

ما رأْتُ عيني مصيبةً نزلتْ بالخلقِ أعظمَ من سبِّهم للزمانِ وعيبيهم للدَّهرِ.
وقد كان هذا في الجاهلية، ثم نهى رسولُ الله ﷺ عن ذلك فقال: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛
فإنَّ اللهَ هو الدَّهرُ»^(١)، ومعناه: أنتم تُسبُّونَ مَنْ فَرَّقَ شَمْلَكُمْ وأَمَاتَ أَهَالِيَكُمْ، وتَسبُّونَهُ
إلى الدَّهرِ، واللهُ تعالى هو الفاعلُ لذلك.

فتعجبتُ؛ كيف أُعلِّمُ أهلَ الأسقامِ هذه الحالِ، وهم على ما كان أهلُ الجاهليةِ
عليه ما يتغيَّرونَ؟! حتَّى ربَّما اجتمعَ الفُطَنَاءُ الأَدَبَاءُ الظُّرَّافُ - على زعمهم -، فلم يكنْ
لهم شغلٌ إلَّا دَمَ الدَّهْرِ! وربَّما جعلوا اللهَ الدُّنيا، ويقولون: فَعَلْتُ وَصَنَعْتُ!! وحتَّى رأيتُ
لأبي قاسمِ الحريريِّ يقولُ:

ولمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ وَهُوَ أَبُو الرَّدَى عَنِ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقاصِدُهُ
تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمَى وَلَا غَرَوُ أَنْ يَخْذُوا الْفَتَى حَذَوُ وَالِدِهِ

○○○○○

التورع عن الشبهات

مَنْ رُزِقَ قَلْبًا طَيِّبًا وَلَذَّةَ مَنَاجَاةٍ؛ فليراجع حاله، وليَحْتَزِرْ من التَّغْيِيرِ!
وإنَّها تدومُ له حاله بدوامِ التَّقْوَى.

وكنْتُ قد رُزِقْتُ لَبًّا طَيِّبًا وَمَنَاجَاةَ خَلْوَةٍ، فأحضرنِي بعضُ أربابِ المناصبِ إلى
طعامِهِ، فما أمكنَ خلافتُهُ، فتناولْتُ وأكلْتُ منه، فَلَقِيتُ الشَّدَائِدَ، ورَأَيْتُ الْعُقُوبَةَ في
الحالِ، واستمرَّتْ مُدَّةً، وَغُصِبْتُ على قلبي، وفقدْتُ كُلَّ ما كنتُ أَجِدُهُ.

فقلتُ: واعجباً! لقد كُنْتُ في هذا كالمُكْرَه!

فتفكَّرتُ، وإذا به قد يمكنُ مداراةُ الأمرِ بِلَقِيَّاتٍ يسيرةٍ، وإنَّما التَّأْوِيلُ جَعَلَ تناولَ
هذا الطعامِ بشهوةٍ أكثرَ مما يُدْفَعُ بالمَدَارَاةِ.

فقالَتِ النفسُ: وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ عَيْنَ هذا الطعامِ حرامٌ؟!

فَقَالَتِ الْيَقْظَةُ: وَأَيْنَ الْوَرَعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ؟!
 فَلَمَّا تَنَاوَلْتُ بِالتَّأْوِيلِ لُقْمَةً، وَاسْتَجَلْبِثْتُهَا بِالطَّبْعِ؛ لَقِيتُ الْأَمْرَيْنِ بِفَقْدِ الْقَلْبِ؛
 فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ!

○ ○ ○ ○ ○

الْمُؤْمِنُ لَا يَفْعَلُ عَنِ الْآخِرَةِ

هَمَّةُ الْمُؤْمِنِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْآخِرَةِ؛ فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا يُجَرِّكُهُ إِلَى ذِكْرِ الْآخِرَةِ، وَكُلُّ مَنْ
 شَغَلَهُ شَيْءٌ؛ فَهَمَّتُهُ شُغْلُهُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ دَخَلَ أَرْبَابُ الصَّنَائِعِ إِلَى دَارٍ مَعْمُورَةٍ؛ رَأَيْتَ الْبَزَّازَ يَنْظُرُ إِلَى الْفُرْشِ،
 وَيَجِرُّ قِيمَتَهُ، وَالنَّجَّارَ إِلَى السَّقْفِ، وَالْبَنَّاءَ إِلَى الْحِيطَانِ، وَالْحَائِكَ إِلَى النَسِيجِ الْمَخِيطِ.

وَالْمُؤْمِنُ إِذَا رَأَى ظُلْمَةً؛ ذَكَرَ ظُلْمَةَ الْقَبْرِ، وَإِنْ رَأَى مُؤْلِمًا؛ ذَكَرَ الْعِقَابَ، وَإِنْ سَمِعَ
 صَوْتًا فَظِيعًا؛ ذَكَرَ نَفْخَةَ الصُّورِ، وَإِنْ رَأَى النَّاسَ نِيَامًا؛ ذَكَرَ الْمَوْتَى فِي الْقُبُورِ، وَإِنْ رَأَى
 لَذَّةً؛ ذَكَرَ الْجَنَّةَ؛ فَهَمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا تَمَّ، وَذَلِكَ يَشْغَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا تَمَّ.

وَأَعْظَمُ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ يَتَخَايَلُ دَوَامَ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَّ بَقَاءَهُ لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَزَالُ وَلَا
 يَعْتَرِيهِ مَنْغَصٌ، فَيَكَادُ إِذَا تَخَايَلَ نَفْسَهُ مُتَقَلِّبًا فِي تِلْكَ اللَّذَّاتِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا تَفْنَى يَطِيشُ
 فَرَحًا، وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ مَا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا؛ مِنْ أَلَمٍ، وَمَرْضٍ، وَابْتِلَاءٍ، وَفَقْدٍ مَحْبُوبٍ، وَهُجُومِ
 الْمَوْتِ، وَمَعَالِجَةِ غُصَصِهِ، ثُمَّ يَتَخَايَلُ الْمُؤْمِنُ دُخُولَ النَّارِ وَالْعَقُوبَةَ، فَيَتَنَغَّصُ عَيْشُهُ وَيَقْوَى
 قَلْقُهُ فَعِنْدَهُ بِالْحَالِينِ شُغْلٌ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَقَلْبُهُ هَائِمٌ فِي بِيدَاءِ الشُّوقِ تَارَةً وَفِي
 صَحْرَاءِ الْخَوْفِ أُخْرَى؛ فَمَا يَرَى الْبِنْيَانَ.

فَإِذَا نَازَلَهُ الْمَوْتُ قَوِيَ ظَنُّهُ بِالسَّلَامَةِ، وَرَجَا لِنَفْسِهِ النِّجَاةَ، فَيَهْوَنُ عَلَيْهِ.

فَإِذَا نَزَلَ إِلَى الْقَبْرِ، وَجَاءَهُ مَنْ يَسْأَلُونَهُ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعُوهُ؛ فَمَا اسْتَرَاخَ
 إِلَّا السَّاعَةَ.

نَسَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقْظَةً تَامَةً؛ تَحَرَّكُنَا إِلَى طَلَبِ الْفَضَائِلِ، وَتَمْنَعُنَا مِنْ اخْتِيَارِ
 الرَّدَائِلِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وَفَّقَ، وَإِلَّا فَلَا نَافِعَ.

افهم مراد ربك

واعجباً من موجود لا يفهم معنى الوجود؛ فإن فهم؛ لم يعمل بمقتضى فهمه!!
يعلم أن العمر قصير، وهو يضيعه بالنوم والبطالة والحديث الفارغ وطلب
الذات، وإنما أيامه أيام عمل لا زمان فراغ.

وقد كُلف بذل المال بمخالفة الطبع من الشرع، فبخل به، إلى أن يتصابق الخناق،
فيقول حينئذ: فرّقوا عني بعد موتي! وافعلوا كذا! فأين يقع هذا لو فعل؟! وبعيد أن
يفعل، وإنما يراؤ بانفاقك في صحتك مخالفة الطبع في تكلف مشاق الإخراج في زمن
السلامة؛ فافرق بين الحالتين إن كان لك فهم!

فالسعيد من انتبه لنفسه، وعمل بمقتضى عقله، واغتتم زمناً نهايته الزمن^(١)،
وانتهب عمراً يا قرب انقطاعه!

ويحك! لو ابتلاك في مالك، فقل؛ لاستغثت، أو في بدنك ليلة بمرض؛ لشكوت؛
فأنت تستوفي مطلوباتك منه، ولا تستوفي حقه عليك، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

فسبحان من على أقوام فهموا المراد فاتعبوا الأجساد، وغطى على قلوب
آخرين فوجودهم كالعدم.

وكيف لا يتعب العاقل بدنه إتعاب البدن والمقصود منى؟!
فوا خيبة من جهله! وا فقر من أعرض عنه! وا ذل من اعترّ بغيره! وا حسرة من
اشتغل بغير خدمته!



(١) الزمن: العاهة والمرض وقد مر.

لا تغتر بالظواهر

لا يَعُرِّكَ من الرجلِ طَنَطَنَتُهُ^(١) وما تراه يفعل من صلاةٍ وصومٍ وصدقةٍ وعزلةٍ!
إنَّما الرجلُ هو الذي يراعي شيئين: حِفْظَ الحُدُودِ، وإخلاصَ العملِ.

فكم قد رأينا متعبداً يَحْرِقُ الحدودَ بالغِيبَةِ وفعلٍ ما لا يجوزُ مما يوافقُ هواه!
وكم قد اعتبرنا على صاحبٍ دينٍ أَنَّهُ يَقْصِدُ بفعله غيرَ الله تعالى!
وهذه الآفة تزيِدُ وتَنْقُصُ في الخلقِ.

فالرجلُ كُلُّ الرجلِ هو الذي يراعي حدودَ الله، وهي ما فُرِضَ عليه وألِزَمَ به، ولا
يتعداها إلى هواه، ويُحَسِّنُ القصدَ، فيكونُ عمله وقوله خالصاً لله تعالى، لا يريدُ به الخلقَ
ولا تعظيمَهم له.

فربَّ خاشعٍ ليقالَ: ناسكٌ! وصامتٍ ليقالَ: خائفٌ! وتاركٍ للدُّنيا ليقالَ: زاهدٌ!
وعلامَةُ المخلصِ أن يكونَ في جُلُوتِهِ كَحُلُوتِهِ، ورَبِّما تَكَلَّفَ بين الناسِ التَّبَسُّمَ
والانبساطَ لِيَتَمَجَّجِيَ عنه اسمُ الزاهدِ؛ فقد كانَ ابنُ سيرينَ يَضْحَكُ بالنهارِ؛ فإذا جَنَّ
الليلُ؛ فكانه قَتَلَ أَهْلَ القريةِ.

فالموفقُ من كانت معاملتُهُ باطنةً وأعمالُهُ خالصةً، وذاك الذي تحبُّه الناسُ وإن لم
يُباهِمْ؛ كما يَمُقُّونَ المرائيَ وإن زادَ تعبُّدُهُ.

ثم إنَّ الرجلَ الموصوفَ بهذه الخصالِ لا يَتَنَاهَى عن كمالِ العلومِ، ولا يُقَصِّرُ عن
طَلَبِ الفضائلِ؛ فَمَمْلَأَ الزمانَ أَكْثَرَ ما يسعُهُ من الخيرِ، وقلْبُهُ لا يَفُتُّ عن العملِ القلبيِّ^(٢)،
إلى أن يصيرَ شُغْلُهُ بالحقِّ سُبْحانَهُ وتعالى.



(١) طَنَطَنَتُهُ: كثرة كلامه وصياحه.

(٢) العمل القلبي: كالإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبة وغير ذلك.

الخير عند العقلاء

إذا رأيت قليل العقل في أصل الوضع؛ فلا ترجُ خيره!
 فأمّا إن كان وافر العقل، لكنه يغلب عليه الهوى؛ فازجه!
 وعلامة ذلك أنه يدبّر أمره في جهله؛ فيستتر من الناس إذا أتى فاحشة، ويراقب
 في بعض الأحوال، وبكي عند الموعظة، ويحترم أهل الدين، فهذا عاقل مغلوب بالهوى؛
 فإذا انتبه بالندم؛ خَسَّ (١) شيطان الهوى، وجاء ملك العقل.
 فأمّا إذا كان قليل العقل في الوضع - وعلامة أن لا ينظر في عاقبة عاجلة ولا
 آجلة، ولا يستحي من الناس أن يروّه على فاحشة، ولا يدبّر أمر دنياه -؛ فذاك بعيد
 الرجاء، وقد يندُر من هؤلاء من يفلح.



لا يفرنك بريق الدنيا

ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول!
 وقد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملي العقل، لعبت بهم الدنيا حتى صاروا
 كالمجانين، فوَلُّوا الولايات، فخرَجوا إلى القتل والضرب والحبس والسَّتم وذهاب الدين
 والمباشرة للظلم، كلّه لأجل دنيا تذهب سريعاً، وهي في مدة إقامتها معجونة بالنَّعص.
 فيا أيها المرزوق عقلاً! لا تبخسه حقّه، ولا تطفئ نوره، واسمع ما نشير به، ولا
 تلتفت إلى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه؛ فإنك إن رحمت بكاءه؛ لم تقدّر على فطامه،
 ولم يمكنك تأديبه، فيبلغ جاهلاً فقيراً:

لا تَسُهْ عن أدب الصِّغ سِرْ وَلَوْ شكا أَلَمِ التَّعَبِ
 ودَعِ الكيِّيرَ لِشأنِهِ كَبَرَ الكيِّيرُ عَنِ الأدبِ

واعلم أن زمان الابتلاء صيفُ قراه (٢) الصبر؛ كما قال أحمد بن حنبل: إنَّما هو

(١) خَسَّ: تأخر ورجع.

(٢) قراه: القِرَى ما يقدم للضيف من طعام ونحوه.

طعامٌ دونَ طعامٍ، وليأسَ دونَ لباسٍ، وإنَّها أيامٌ قلائِلُ؛ فلا تُنظَرُ إلى لذَّةِ المترفينَ، وتَلَمَّحَ عواقِبَهُم، ولا تُضَيِّقْ صدرًا بضيقِ المعاشِ، وعَلِّلْ^(١) الناقةَ بالحدو^(٢) تَسِرْ.

وقد كانَ أَهْدِي إلى أحمدَ بن حنبلٍ هديةً، فردَّها، ثم قالَ بعدَ سنةٍ لأولادِهِ: لو كُنَّا قَبِلْنَاهَا؛ كانتَ دَهَبَتْ.

وَدَخَلُوا إلى بشرِ الحافي، وليسَ في دارِهِ حَصِيرٌ، فقیلَ لَهُ: أَلَا بِذَا تُؤَذَى؟ فقالَ: هذا أمرٌ يَنْقُضِي.

فهؤلاءِ الذينَ نَظَرُوا في عواقِبِ الأمورِ.

وَمَنْ صَفَا نَظَرُهُ وَتَهَذَّبَ لَفْظُهُ؛ نَفَعَ وَغَطَّهُ، وَمَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ.

والحالَةُ العالِيَةُ في هذا: إقبالُ القلبِ على الله عزَّ وجلَّ، والتوكُّلُ عليه، والنظرُ إليه، والتفاتُ القلبِ عن الخلقِ؛ فَإِنْ احتَجَّتْ؛ فاسألهُ، وَإِنْ ضَعُفَتْ؛ فارغبْ إليه.

ومتى ساكنتَ الأسبابَ؛ انقطعتَ عنه، ومتى استقامَ باطنُك؛ استقامتْ لك الأمورُ.



عليك بمطالعة سير السلف

كانت هِمُّ القدماءِ من العلماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهُم التي هي زُبْدُهُ أعمارِهِم؛ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ تصانيفِهِم دَنَرَتْ؛ لِأَنَّ هِمَّ الطُّلابِ ضَعُفَتْ، فصاروا يَطْلُبُونَ المختصراتِ، ولا يَنْشَطُونَ للمطوَّلَاتِ، ثم اقتَصَرُوا على ما يدرُسُونَ به من بعضها، فَدَنَرَتْ الكتبُ، ولم تُنَسَخْ!

فسيُلبِ طالبُ الكمالِ في طَلَبِ العلمِ الاطِّلاعُ على الكتبِ التي قد تَخَلَّفَتْ من المصنِّفاتِ؛ فَلْيَكْثِرْ من المطالعةِ؛ فَإِنَّهُ يرى من علومِ القومِ وعلوِّ هِمِّهِم ما يَشْحَذُ خَاطِرَهُ ويحرِّكُ عَزمَتَهُ للجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذُ بالله من سِرِّ هؤلاءِ الذينَ نعاشرُهُم! لا نرى فيهِم ذا هِمَّةٍ عالِيَةٍ فيَقْتَدِي بها المبتدئُ، ولا صاحبَ ورعٍ فيستفيدُ منه الزاهدُ.

(١) علِّل: أشغل.

(٢) الحدو: الحداء وهو الإنشاء للإبل.

فَاللَّهُ اللَّهُ! وَعَلَيْكُمْ بِمِلَاحِظَةِ سِيرِ السَّلَفِ وَمِطَالَعَةِ تَصَانِيفِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ؛
فَالِاسْتِكْثَارُ مِنْ مِطَالَعَةِ كُتُبِهِمْ رُؤْيَةٌ لَهُمْ؛ كَمَا قَالَ (١):

فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي
وَإِنِّي أَخْبِرُ عَنْ حَالِي: مَا أَشْبَعُ مِنْ مِطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَإِذَا رَأَيْتُ كِتَابًا لَمْ أَرَهُ؛ فَكَأَنِّي
وَقَعْتُ عَلَى كَنْزٍ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ فِي ثَبَتِ (٢) الْكُتُبِ الْمَوْقُوفَةِ فِي الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ؛ فَإِذَا بِهِ
يَحْتَوِي عَلَى نَحْوِ سِتَّةِ آلَافٍ مَجْلَدٍ، وَفِي ثَبَتِ كُتُبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَكُتُبِ الْحُمَيْدِيِّ وَكُتُبِ
شَيْخِنَا عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ نَاصِرٍ وَكُتُبِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْخَشَّابِ وَكَانَتْ أَهْمَالًا... وَغَيْرَ ذَلِكَ
مِنْ كُلِّ كِتَابٍ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ قُلْتُ: إِنِّي طَالَعْتُ عَشْرِينَ أَلْفَ مَجْلَدٍ؛ كَانَ أَكْثَرَ، وَأَنَا بَعْدُ
فِي الطَّلَبِ! فَاسْتَفَدْتُ بِالنَّظَرِ فِيهَا مِنْ مِلَاحِظَةِ سِيرِ الْقَوْمِ وَقَدَّرِ هِمَمَهُمْ وَحَفَظَهُمْ
وَعِبَادَاتِهِمْ وَغَرَائِبِ عُلُومِهِمْ مَا لَا يَعْرِفُهُ مَنْ لَمْ يَطَالَعْ، فَصَرْتُ أَسْتَرْزِي مَا النَّاسُ فِيهِ
وَأَحْتَقِرُّ هِمَمَ الطَّلَابِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ.

○○○○○

لِمَاذَا تَهْلِكُ نَفْسُكَ؟

لَيْسَ لِلْأَدَمِيِّ أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ عَجِبْتُ مَنْ يَخَاطِرُ بِهَا وَيَعْرِضُهَا لِلْهَلَاكِ! وَالسَّبَبُ
فِي ذَلِكَ قِلَّةُ الْعَقْلِ وَسُوءُ النَّظَرِ!!

فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِضُهَا لِلتَّلَفِ لِيُمدَحَ بِزَعْمِهِ؛ مِثْلُ قَوْمٍ يَخْرُجُونَ إِلَى قَتْلِ السَّيِّعِ!
وَمِنْهُمْ مَنْ يَضَعُهُ إِلَى إِيوَانٍ كَسْرَى؛ لِيُقَالَ: شَاطِرٌ (٣)! وَسَاعَ يَمْشِي ثَلَاثِينَ فَرَسَخًا!
وَهُؤُلَاءِ إِذَا تَلَفُوا؛ حُمِلُوا إِلَى النَّارِ؛ فَإِنْ هَلَكَ؛ ذَهَبَتِ النَّفْسُ الَّتِي يُرَادُ الْمَالُ لِأَجْلِهَا.

وَأَعْجَبُ مِنَ الْكُلِّ مَنْ يَخَاطِرُ بِنَفْسِهِ فِي الْهَلَاكِ وَلَا يَدْرِي؛ مِثْلُ أَنْ يَغْضَبَ فَيَقْتُلَ
الْمُسْلِمَ فَيَشْفِي غَيْظَهُ بِالتَّعْذِيبِ فِي جَهَنَّمَ.

وَأَظَرُّ مِنْ هَذَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَبْلُغُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي

(١) الشريف الرضي، والبيت في ديوانه (١/ ٥٠٠).

(٢) ثبت: فهرس.

(٣) الشاطر: هنا بمعنى السابق المسرع. وتجيء بمعنى الخبيث الفاجر.

نبوة نبينا ﷺ؛ فإذا فرطَ فمات؛ فله الخلودُ في جهنم.
وأعجبُ من الكلِّ جاحدُ الخالق، وهو يرى إحكامَ الصنعة، ويقول: لا صانع!!
والسببُ في هذه الأشياءِ كلها قلةُ العقلِ وتركُ إعمالِهِ في النظرِ والاستدلالِ.

○○○○○

لا تخالطُ حسوداً

العزلةُ عن الخلقِ سببُ طيبِ العيش، ولا بدُّ من مخالطةٍ بمقدارٍ.
فدارِ العدوَّ واستمِله؛ فربما كادَكَ فأهلكَكَ!
وأحسنْ إلى مَنْ أساءَ إليك! واستعنْ على أمورك بالكتمانِ!
فإن أردتَ العيشَ؛ فابعُدْ عن الحسودِ؛ لأنه يرى نعمتك؛ فربما أصابها بالعين!
فإن اضطررتَ إلى مخالطته؛ فلا تُفشِ له سرَّك ولا تشاوره، ولا يعزَّتك تملُّقه لك ولا
ما يُظهره من الدينِ والتعبُدِ؛ فإنَّ الحسدَ يغلبُ الدينَ! وقد عرفتَ أنَّ قابيلَ أخرجَه الحسدُ إلى
القتلِ! وأنَّ إخوةَ يوسفَ باعوه بثمانِ بَخْسٍ! وكان أبو عامرِ الراهبُ من المتعبدينَ العقلاء،
وعبدَ الله بنَ أبي من الرؤساء؛ أخرجهما حسدُ رسولِ الله ﷺ إلى النفاقِ وتركِ الصوابِ.
ولا ينبغي أن تطلبَ لحاسدِكَ عقوبةً أكثرَ ممَّا هو فيه؛ فإنه في أمرٍ عظيمٍ متَّصلٍ، لا
يُرضيه إلا زوالُ نعمتك، وكلِّما امتدَّتْ؛ امتدَّ عذابُه؛ فلا عيشَ له!
وما طابَ عيشُ أهلِ الجنةِ إلا حينَ نزعِ الحسدِ والغُلِّ من صدورهم، ولولا أنَّه
نُزعٌ؛ تحاسدوا وتنفَّصَ عيشهم.

○○○○○

أطيبُ العيشِ

ينبغي أن يكونَ العملُ كُلُّه لله ومعهُ ومن أجلِهِ؛ وقد كفَّاكَ كلُّ مخلوقٍ، وجَلَبَ
لك كلَّ خيرٍ.
وإياكَ أن تميلَ عنه بموافقةِ هوى وإرضاءِ مخلوقٍ؛ فإنه ينعكسُ عليك الحالُ، ويُقوِّتَكَ
المقصودُ، وفي الحديث: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بَسَخَطِ اللهُ؛ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذامًّا» (١).

وأطيب العيش عيش مَنْ يعيش مع الخالق سبحانه.
فإن قيل: كيف يعيش معه؟

قلت: بامثال أمره، واجتناب نهيه، ومراعاة حدوده، والرضى بقضائه، وحسن الأدب في الخلوة، وكثرة ذكره، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره؛ فإن احتجت؛ سألته؛ فإن أعطى، وإلا رضى بالمنع، وعلمت أنه لم يمنع بخلاً، وإنما نظراً لك، ولا تنقطع عن السؤال؛ لأنك تتعبد به، ومتى دمت على ذلك؛ رزقك محبةً وصدق التوكل عليه، فصارت المحبة تدلك على المقصود، وأثمرت لك محبة إياك؛ فحينئذ تعيش عيش الصديقين. ولا خير في عيش إن لم يكن كذا، فإن أكثر الناس محبطين في عيشه، يداري الأسباب، ويميل إليها بقلبه، ويتعب في تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد، وبرغبة إلى الخلق، ويعترض عند انكسار الأغراض؛ والقدر يجري ولا يبالي بسخط، ولا يحصل له إلا ما قدر، وقد فاتته القرب من الحق والمحبة له والتأدب معه. فذلك العيش عيش البهائم.



الرضى عن النفس مصيبة عظيمة

المصيبة العظيمة رضى الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه!
وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق:

فترى اليهودي أو النصراني يرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبوة نبينا ﷺ، وإذا سمع ما يلائق قلبه مثل القرآن المعجز؛ هرب؛ لئلا يسمع! وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه؛ إما لأنه مذهب أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظراً أول فرآه صواباً، ولم ينظر فيما يناقضه، ولم يباحث العلماء ليسيئوا له خطأ! ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ فإنهم استحسبوا ما وقع لهم، ولم يرجعوا إلى من يعلم، ولما لقيهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فبين لهم خطأهم؛ رجع عن مذهبه منهم ألفان.

ومن لم يرجع عن هواه ابن ملجم، فرأى مذهبه هو الحق، فاستحل قتل أمير المؤمنين عليه السلام، ورآه ديناً، حتى إنه لما قطعت أعضاؤه؛ لم يباغ، فلما طلب لسانه ليقطع؛

انزعج، وقال: كيف أبقي ساعة في الدنيا لا أذكر الله؟! ومثل هذا ما له دواء.
وكذلك كان الحجاج يقول: والله؛ ما أرجو الخير إلا بعد الموت! هذا قوله! وكم
قد قتل من لا يحل قتله، منهم سعيد بن جبير.
فينبغي للإنسان أن يبالغ في معرفة الدليل، ولا يساكن شبهته، ولا يثق بعلم نفسه.
فنسأل الله السلامة من جميع الآفات.



عداوة الأقارب

عداوة الأقارب صعبة، وربما دامت كحرب بكر وتغلب ابني وإيل^(١)، وعبي،
وذبيان ابني بغيض، والأوس والخزرج ابني قبيلة. قال الجاحظ: تعدت هذه الحرب
أربعين عامًا.

والسبب في هذا أن كل واحد من الأقارب يكره أن يفوقه قريبه، فيقع التحاسد.
فينبغي لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم، ويرفعهم جهده، ويرفق بهم؛ لعله يسلم.
قال رجل لرسول الله ﷺ: لي أقارب أصلهم فيقطعوني؟ فقال: «فكأنها تسفهم
الملل^(٢)، ولن يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»^(٣).



عبرة يوم العيد

رايت الناس يوم العيد، فشبهت الحال بالقيامة:
فإنهم لما انتهوا من نومهم؛ خرجوا إلى عيدهم كخروج الموتى من قبورهم إلى حشرهم.
* فمنهم من زينته الغاية، ومركبه النهاية، ومنهم المتوسط، ومنهم المزدول. وعلى هذا
أحوال الناس يوم القيامة: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أي: ركبانا.

(١) وهي حرب البسوس التي كادت بكر وتغلب أن تغنيا فيها، وقد هاجت بسبب ناقة، فاعجب!

(٢) الملل: الرماد الحار.

(٣) مسلم (٢٥٥٨).

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٦]؛ أي: عِطَاشًا. وقال عليه الصلاة والسلام: «يُخْشَرُونَ رُكْبَانًا وَمِشَاءً وَعَلَى وَجُوهِهِمْ»^(١).

* ومن الناس من يُداسُ في زحمة العيد، وكذلك الظَّلَمَةُ يطوُّهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ فِي الْقِيَامَةِ.
* ومن الناس يومَ العيدِ الغنيُّ المتصدِّقُ، كذلك يومَ القيامةِ أهلُ المعروفِ في الدنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرة.

* ومنهم الفقيرُ السائلُ الذي يطلبُ أن يُعطى، كذلك يومَ الجزاء: «أعددتُ شفاعتي لأهل الكبائر»^(٢).

* ومنهم من لا يُعْطَفُ عليه؛ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١].
والأعلامُ منشورةٌ في العيد، كذلك أعلامُ المتقين في القيامة، والبوقُ يُضْرَبُ كذلك يُخْبَرُ بحالِ العبد، فيقال: يا أهلَ الموقفِ! إنَّ فلانًا قد سَعِدَ سَعَادَةً لَا شَقَاوَةَ بَعْدَهَا، وإنَّ فلانًا قد شَقِيَ شَقَاوَةً لَا سَعَادَةَ بَعْدَهَا.

ثم يرجعون من العيدِ بالخواصِّ إلى بابِ الحُجْرَةِ يُخْبِرُونَ بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، فيخرجُ التوقيعُ إليهم: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].
ومن هو دونهم يختلفُ حاله: فمنهم من يرجعُ إلى بيتِ عامرٍ؛ ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ومنهم متوسطٌ، ومنهم من يعودُ إلى بيتِ فقيرٍ.
﴿فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ٢].



في أمثلةِ الآدميِّ

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِأَحْوَالِ الْآدَمِيِّ امثلةً ليعتبرَ بها:
فمن أمثلةِ أحواله: القمرُ، الذي يَبْدُو صَغِيرًا، ثم يَتَكَمَّلُ بَدْرًا، ثم يتناقصُ بانمحاق^(٣)، وقد يَظُرُّ عليه ما يُفْسِدُهُ كَالْكُسُوفِ؛ فكذلك الآدميُّ أولُهُ نطفةٌ، ثم يترقى

(١) أحمد (٨٥٣٧)؛ والترمذي (٣١٤٢).

(٢) أحمد (١٢٨١٠)؛ وأبوداود (٤٧٣٩)؛ والترمذي (٢٤٣٦)؛ وابن ماجه (٤٣١٠).

(٣) بانمحاق: أي زاد نقصه حتى ما يكاد يرى.

من الفسادِ إلى الصَّلاحِ؛ فإذا تَمَّ؛ كان بمنزلةِ البَدْرِ الكاملِ، ثم تتناقصُ أحواله بالصَّغْفِ،
فربما هَجَمَ الموتُ قبل ذلك هجُومَ الكسوفِ على القمرِ.

قال الشاعرُ:

والمرءُ مثلُ هلالٍ عندَ طُلُوعِهِ يَبْدُو ضئيلاً لَطيفاً ثم يَتَسَقُّ
يَزْدَادُ حتَّى إذا ما تَمَّ أَغْبَهُ كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصاً ثم يَنْمَحُ

ومن أمثلةِ حالِهِ دودُ القَرِّ؛ فإنه يكونُ حَباً^(١) إلى أن يبتدئَ نباتُ قوتِهِ، وهو وَرَقُ
الْفَرَصَادِ^(٢)؛ فإذا اخضرَّ الورقُ؛ دبَّتِ الرُّوحُ فيه، ثم ينتقلُ من حالٍ إلى حالٍ كانتقالِ
الطِّفْلِ، ثم يرقُدُ كغفلةِ الآدميِّ عن النَّظَرِ في العواقِبِ، ثم يتبَّه فيخْرِصُ على الأكلِ
كحِرْصِ الشَّيْءِ على تحصيلِ الدُّنيا، ثم يُسْدِي^(٣) على نَفْسِهِ كما يَحْطُبُ الآدميُّ الأوزارَ على
دينِهِ، فيُرْتَهِنُ في ذلك الحبسِ كما يُرْتَهِنُ الميْتُ في قَبْرِهِ، ثم يَفْرُصُ فيخرجُ خلقاً آخرَ كما
تُشْرُ الموتى غُرَلاً^(٤) بهما^(٥).

وقد دَلَّه على البعثِ؛ تَكُونُ النطفَةُ كَمَيْتٍ ثم تصيرُ آدمياً، وإلقاءُ الحبِّ تحتِ
الأرضِ فيفسدُ ثم يهترُ خَضِراً.

إذا المرءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ففي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ



من أخبار السلف في اعتناء الوقت

رَأَيْتُ العَادَاتِ قَدْ غَلَبَتِ النَّاسَ فِي تَضْيِيعِ الزَّمانِ، وكان القدماءُ يُحذِّرونَ من ذلك:
قال الفضيلُ: أَعْرِفْ من يُعَدُّ كَلَامُهُ من الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ.
ودخلوا على رجلٍ من السَّلَفِ، فقالوا: لعلَّنَا شَغَلْنَاكَ؟ فقال: أَصْدُقُكُمْ؛ كُنْتُ

(١) حَبًّا: أي بيضًا.

(٢) الفرساد: التوت.

(٣) يسدي: يغزل.

(٤) غرلاً: غير مختونين.

(٥) بهما: سالمين عن الآفات والأمراض.

أقرأ، فتركتُ القراءةَ لأجلِكُم.

وجاء رجلٌ من المتعبدين إلى سري السَّقَطِيّ، فرأى عنده جماعةً، فقال: صِرْتَ مُنَاخَ البطالين؟ ثم مضى ولم يجلس.

ومتى لانَ السَّمُورُ؛ طَمِعَ فيه الزائرُ، فأطالَ الجلوسَ، فلم يَسَلَمْ من أذى. وقد كانَ جماعةٌ قعودًا عند معروفٍ، فأطالوا، فقال: إِنْ مَلَكَ الشَّمْسُ لَا يَفْتُرُ فِي سَوَاقِهَا؛ أَفَمَا تَرِيدُونَ الْقِيَامَ؟! وَمَنْ كَانَ يَحْفَظُ اللَّحَظَاتِ عَامُرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ؛ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: قِفْ أَكَلَمَكَ. قَالَ: فَأَمْسِكِ الشَّمْسَ.

وكان داوودُ الطائيُّ يَسْتَفُّ الْفَيْتِ، ويقولُ: بَيْنَ سَفِّ الْفَيْتِ وَأَكْلِ الْخَبِزِ قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً.

وأوصى بعضُ السَّلَفِ أَصْحَابَهُ، فقال: إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي؛ فَتَفَرَّقُوا؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي طَرِيقِهِ، وَمَتَى اجْتَمَعْتُمْ؛ تَحَدَّثْتُمْ.

واعلم أَنَّ الزَّمانَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ يَضِيعَ مِنْهُ لَحْظَةٌ؛ فَإِنْ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١)؛ فَكَمْ يُضَيِّعُ الْآدَمِيُّ مِنْ سَاعَاتٍ يَفُوتُهُ فِيهَا الثَّوَابُ الْجَزِيلُ!

وهذه الأيامُ مِثْلُ الْمَرْعَةِ؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ: كُلَّمَا بَدَّرْتَ حَبَّةً؛ أَخْرَجْنَا لَكَ أَلْفَ كُرٍّ^(٢)؛ فَهَلْ يَجُوزُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِي الْبَدْرِ وَيَتَوَانَى؟!

والذي يَعِينُ عَلَى اغْتِنَامِ الزَّمانِ: الْإِنْفِرَادُ وَالْعَزَلَةُ مَهْمَا أَمَكْنَ، وَالِاخْتِصَارُ عَلَى السَّلَامِ أَوْ حَاجَةِ مَهْمَةٍ لِمَنْ يَلْقَى، وَقَلَّةُ الْأَكْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَتَهُ سَبَبُ النَّوْمِ الطَّوِيلِ وَضِياعِ اللَّيْلِ. وَمَنْ نَظَرَ فِي سَيْرِ السَّلَفِ وَأَمِنَ بِالْجِزَاءِ؛ بَانَ لَهُ مَا ذَكَرْتُهُ.



(١) الترمذي (٣٤٦٤).

(٢) الكُرُّ: مكيال عراقي يساوي أربعين إردبًا.

نصائح للأزواج والزوجات

ينبغي للعاقل أن يتخير امرأةً صالحةً، من بيتٍ صالح، يغلبُ عليه الفقر؛ ل ترى ما يأتيها به كثيرًا!

وليتزوجَ مَنْ يقاربه في السن؛ فأما الشيخ؛ فإنه إذا تزوجَ صبيةً؛ آذاها، وربما فجرت، أو قتلته، أو طلبت الطلاق وهو يحبها، فيتأذى، وليتمم نقصه بحسن الأخلاق وكثرة النفقة.

ولا ينبغي للمرأة أن تقرب من زوجها كثيرًا؛ فتمل، ولا تبعد عنه؛ فينساها، ولتكن وقت قُربها إليه كاملة النظافة متحسنة.

ولتحذر أن يرى قُربها أو جسمها كله؛ فإن جسم الإنسان ليس بمستحسن! وكذلك ينبغي له أن لا يرى جسمه، وإنما الجماع في الفراش.

ورأى كسرى يومًا كيف يُسلخُ الحيوانُ ويُطبخُ، فتقلبَت نفسه، ونفى اللحم، فذكر ذلك لوزيرِهِ، فقال: أيُّها الملك! الطبخُ على المائدة، والمرأة في الفراش. ومعناه: لا تفش عن ذلك.

وهذا الحزم، وبذلك لا يعيبُ الرجلُ المرأة؛ لأنه لم يرَ عيوبها. ومن الناس من يستهينُ بهذه الأشياء، فيرى المرأة متبذلة؛ تقول: هذا أبو أولادي! ويتبدل هو! فيرى كل واحدٍ من الآخر ما لا يشتهي، فينفِر القلبُ، وتبقى المعاشرة بغير محبة. وهذا فصلٌ ينبغي تأمله والعملُ به؛ فإنه أصلٌ عظيم.



التدبيرُ نصفُ المعيشة

العاقلُ يدبُرُ بعقله عيشته في الدنيا : فإن كان فقيرًا؛ اجتهد في كسبِ وصناعةٍ تكفه عن الدُّلِّ للخلق، وقلَّ العلائق، واستعمل القناعة؛ فعاش سليماً من مَن الناس عزيزاً بينهم.

وإن كان غنيًّا؛ فينبغي له أن يدبُرَ في نفقته؛ خوف أن يفتقر، فيحتاج إلى الدُّلِّ للخلق، ومن البلية أن يُبدَّر في النفقة، وبهايها ليُكمد الأعداء، كأنه يتعرض بذلك -

إن أكثر - لإصابته بالعين! وينبغي التوسط في الأحوال وكتمان ما يصلح كتمانه.
ولقد وجد بعض الغساليين مالا، فأكثر في النفقة، فعلم به، فأخذ منه المال، وعاد
إلى الفقر.

وإنما التدبير حفظ المال، والتوسط في الإنفاق، وكتمان ما لا يصلح إظهاره.
ومن الغلط إطلاع الزوجة على قدر المال؛ فإنه إن كان قليلا؛ هان عندها الزوج،
وإن كان كثيرا؛ طلبت زيادة الكسوة والحلي! قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ
أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]. وكذلك الولد.

وكذلك الأسرار؛ ينبغي أن تحفظ، وأن يُحذَر منها، ومن الصديق؛ فربما انقلب؛
فقد قال الشاعر:

أَحْذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَاحْذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةً
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ يَكُنْ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالْمَضَرَّةِ



الفهرس

٣ مقدمة المختصر
٥ مقدمة المؤلف
٦ الغفلة واليقظة
٦ فوائد النظر في العواقب
٧ أعجبُ العجائب
٧ تجنب مواضع الفتن
٨ أعظم العقوبة
٨ علامة كمال العقل
٨ في وجوب أخذ العُدَّة للرحيل
٩ أسباب العقوبات
٩ في تصفية الأعمال
١٠ في قيمة الوقت
١١ الجزاء من جنس العمل
١١ حوادث الدنيا والآخرة
١٢ العزلة عن الشر لا عن الخير
١٣ بين العلم والعمل
١٤ مقاصد النكاح
١٥ حلاوة الطاعة وشؤم المعصية
١٦ خبايا النفوس
١٧ لذة قهر الهوى
١٨ أحوال النفس
١٩ سُئِنَ نفسك
٢٠ أسباب تخلف إجابة الدعاء
٢٢ موقف المؤمن عند الشدائد
٢٢ العلم يدعو إلى العمل

٢٣ فضل العلم
٢٤ تأملات في تدبير الخالق
٢٥ الأسباب لا تنافي التوكل
٢٦ الإسلام والنظافة
٢٨ حكمة البلاء
٣٠ جهل بعض المتصوفة
٣١ نصيحة لأهل الوعظ
٣٢ العشق داء الجامدين
٣٢ في طول العمر
٣٣ في أن التقوى أصل السلامة
٣٤ مقصود اللذة والهوى
٣٥ في شؤم المعصية وبركة الطاعة
٣٥ عثرات الطريق
٣٦ في أن التقوى تدفع البلاء
٣٧ المؤمن والمعصية
٣٧ إياكم ومحقرات الذنوب
٣٨ حقق التوبة ثم اسأل
٣٩ المؤمن بين البلاء والرخاء
٤٠ في شرف الصبر عن المعاصي
٤١ في حفظ الوقت
٤١ لا تأمن مكر الله
٤٢ كفى بالموت واعظاً
٤٢ في اتقاء الشبهات
٤٤ لا بد من العمل والكسب
٤٥ تأملات
٤٦ للبلاء نهاية
٤٧ لا تستعجل إجابة الدعاء

- ٤٨ في علو الهمة.
- ٤٩ من عجائب البشر.
- ٥٠ مراقبة الله في الخلوات.
- ٥١ نصائح لطالب العلم.
- ٥٣ في التقوى دوام العافية.
- ٥٤ إياك والوقوع في فحش الدنيا.
- ٥٤ انتبه لنفسك.
- ٥٥ ففروا إلى الله.
- ٥٥ طول الأمل وقصره.
- ٥٦ الزم محراب الإنابة.
- ٥٧ العاقل لا ينتهك حرمة الله.
- ٥٧ إياك والتعرض للفتن.
- ٥٨ في صيانة العلم.
- ٥٩ اتبع ولا تبذع.
- ٦٠ عاقبة الصبر.
- ٦١ أئثر الرفاق في صلاح القلوب.
- ٦١ عليك بالقناعة.
- ٦٣ أسباب ظهور الأهواء والبذع.
- ٦٤ شرف الزمان.
- ٦٥ حلاوة طلب العلم.
- ٦٦ في تأديب الصبيان.
- ٦٧ في لزوم الحذر والخوف من الله.
- ٦٨ في فضل النظر والتأمل.
- ٦٩ وفي أنفسكم أفلا تبصرون.
- ٦٩ راقب ربك ودعك من الخلق.
- ٧٠ احفظ سرّك.
- ٧١ متى تتزوّد للآخرة؟

- ٧٢ حقيقة اللذة.....
- ٧٣ النعيم لا يُدرك بالنعيم.....
- ٧٤ الإيمان يتبين عند البلاء.....
- ٧٥ تذكر نعيم الروح.....
- ٧٦ لا تجزع من البلاء.....
- ٧٧ احذر مראה الخلق.....
- ٧٨ من أقبح المعاصي.....
- ٧٩ كيف تتعامل مع غاضب؟.....
- ٨٠ كن بعيد النظر.....
- ٨٠ الاستعداد ليوم الرحيل.....
- ٨١ إمام الرسل وسيد الراضين ﷺ.....
- ٨٣ زوجتك أجل!.....
- ٨٣ فضل علم الحديث والمحدثين.....
- ٨٤ حقيقة عبيد الشهوات.....
- ٨٥ الذنب لا يُنسى.....
- ٨٦ ضلال أهل الجاهلية.....
- ٨٧ منع الدنيا نعمة تحتاج إلى شكر.....
- ٨٧ نصيحة لكبار السن.....
- ٨٩ السعيد من وعظ بغيره.....
- ٩٠ الطريق إلى الجنة.....
- ٩٠ أسباب الهموم والغموم.....
- ٩١ أخلاق الكرام.....
- ٩٢ الخير في اختيار الله.....
- ٩٢ مفاصل سؤال الخلق.....
- ٩٣ أسباب تراخي الخلق في الإقبال على الله تعالى.....
- ٩٤ أيها الإنسان! هذه حقيقتك.....
- ٩٥ اخلص لربك ولا تراثني.....

- ٩٥ وفي أنفسكم أفلا تبصرون.
- ٩٦ في ضرورة التثبت في الأمور والنظر في عواقبها.
- ٩٦ وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها.
- ٩٧ من قصص البخلاء.
- ٩٨ تواضع العلماء.
- ٩٩ وعاشروهم بالمعروف.
- ١٠١ لا تسبوا الدهر.
- ١٠١ التورع عن الشبهات.
- ١٠٢ المؤمن لا يغفل عن الآخرة.
- ١٠٣ افهم مراد ربك.
- ١٠٤ لا تغتر بالظواهر.
- ١٠٥ الخير عند العقلاء.
- ١٠٥ لا يغرنك بريق الدنيا.
- ١٠٦ عليك بمطالعة سير السلف.
- ١٠٧ لماذا تهلك نفسك؟
- ١٠٨ لا تخالط حسوداً.
- ١٠٨ أطيّب العيش.
- ١٠٩ الرضى عن النفس مصيبة عظيمة.
- ١١٠ عداوة الأقارب.
- ١١٠ عبرة يوم العيد.
- ١١١ في أمثلة آدمي.
- ١١٢ من أخبار السلف في اغتنام الوقت.
- ١١٤ نصائح للأزواج والزوجات.
- ١١٤ التدبير نصف المعيشة.
- ١١٦ الفهرس.